





إسماعيل عرفة

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨



عنوان الكتاب	عصر الأنا
تأليف	إسماعيل عرفة
التصنيف الرئيسي	معارف عامة
التصنيف الفرعي	تنمية ذات / عادات عامة
رقم الإيداع	0823/2021 الكويت
الترقيم الدولي ISBN	978-9921-758-32-0
بيانات الفهرسة	248 ص / 21 سم × 14سم
المراجعة اللغوية	معتز زاهر
فكرة وتنفيذ	ديوان الإبداع
إنتاج	شركة دار ديوان

الطبعة الثانية **2021**

دار ديوان للنشر والتوزيع

الكويت - شرق - قطعة 5 - شارع أحمد الجابر - برج الجاز - دور 11 - مكتب 33
(+965) 22285440 (+965) 91111474
البريد الإلكتروني: info@dardiwan.com
الموقع الإلكتروني: www.dardiwan.com

إهداء

إلى جيل لم يعد يعرف طريقه..

قال رسول الله ﷺ:

« ..أمَّا المُهلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وهَوًى مُتَّبَعٌ،

وإعْجَابُ المَرْءِ بنفسِهِ».

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

في أحد الأيام دعاني أحد أصدقائي مشكورًا إلى تناول وجبة الغداء في بيته، قبلت الدعوة مرحبًا بهذه الضيافة الكريمة، وعندما وصلت إلى بيته نزل ليصطحبني في المصعد، وأثناء ركوبنا للمصعد صحبنا بعض جيرانه خلال لحظات الانتظار الصامتة، ثم ولّى كل منهم شطر شقته، فلما سألته عنهم اتضح أنه لا يعرف عنهم شيئاً، لم أتعجب ولم أعِر الأمر اهتمامًا وتجاهلته عفويًا؛ إذ أن العادة جرت في مجتمعات المدينة في يومنا هذا ألا يعرف الجار جاره ولو كان يعيش على بُعد خطوات قليلة من باب داره، بعكس المجتمعات الريفية التقليدية.

بعدما أكرمني صديقي وقدم لي «واجب الضيافة» أخبرني بسبب رغبته في الحديث إليّ فألقيت له سمعي وبدأ في سرد حكايته، أنقلها كما هي: «عندما كنت في المرحلة الثانوية كنت أفكر دائمًا في قضايا الأمة الإسلامية، وبالأخص القضية الفلسطينية. كانت أخبار فلسطين تستولي على كثير من وقتى، وكنت أرى نفسي أحد محرريها القادمين وأمنّي نفسي بذلك، وكنت أحب الدخول في نقاشات عديدة، جميعها تدور حول قضايا كبرى، هي عني بعيدة بُعد السماء من الأرض.

آمنت - في فترةٍ ما - بالربيع العربي، وظننت أنه أولى خطوات تحرير فلسطين، وهيأت نفسي لأكون صلاح الدين الجديد، لكن تغير الأمر من ناحيتي بعد فترة، فقد طالت بي النقاشات وتراكمت على كاهلي الأخبار والأحداث، ثم ما لبثت أن التحقت بالجامعة وانشغلت مع دوامة الحياة وصارت تلك النقاشات تستنزف طاقتي، ومع بدء احتكاكي بسوق العمل وطبيعة الحياة في العالم الجديد اصطدمت بالواقع ومتطلباته ومسؤولياته وأيقنت أن تلك السجالات لا تسمن ولا تغني من الجوع، وأن أمة الإسلام لن تتخلص أبدًا من دور القصعة التى تتداعى عليها الأمم بمجرد متابعتي لأخبارها التي أصابتني بالاكتئاب».

واستكمل صاحبي: «فلذلك أصبحت أفضَل الابتعاد عن أي قضية أكبر مني وأصبح شعاري في الحياة (الله - أنا - الآخر)، وأصبح أكبر همي أن أصل إلى معنى لحياتي، فاتجهت إلى القراءة في علم النفس والسماع للأطباء النفسيين في محاولة مني إلي التعمق أكثر في نفسي لأنقحها مما عَلِق بها من كل تلك الخيبات، التي تعرضت لها جراء انشغالها بتلك القضايا التي أهلكت أممًا قبلها، فلا عجب لفِعلتها بها».

سكت صاحبي لحظات، وأطرق ينظر إلى الأرض وكأنه يتأسى من حاله ليقول بصوت منكسر: «أعترف أني الآن أتمحور حول نفسي، أدور في فلكها، لأني لا أجد مهربًا لما يحدث خارجها سواها! لا أجد أمانًا في ذاك العالم الموبوء سوى أن أحتمي فيها، بداخلها، أن أجعلها حصنًا منيعًا قويًا قادرًا على الثبات والتجاوز والتأقلم، متقنًا للمرونة، منفتحًا على الحياة، منغلقًا على أي محاولة لقمعها».

لاحظت في عينيه عبرة تكاد تغلبه وهو يتمتم بآخر كلماته التي تكاد تعانق دموعه: «لا أعلم هل هذا رد فعل على تهميشنا المستمر ومحاولة إظهارنا بأننا أتفه من أن نحمل قضايا الأمة، وتصدر إمعات الزمان للمشهد الخطابي، فعطبت نفوسنا وصارت محاولة إصلاحها لزامًا علينا كي ننجو من كل تلك الفتن؟! أم أن المادية قد استشرت في نفوسنا حتى حولتها إلى آلهة جوفاء تئن مما تفعله الازدواجية بها؟! الحقيقية لا أعرف».

بعدما انتهى صاحبي من سرد حكايته، سكتٌ قليلًا وأظهرت له تفهمي الكامل لما يدور في خاطره، فبالنهاية لم تكن هذه المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا التحول الفكري للشباب، بل أقول إنني شخصيًا قد لفحني شرر هذا التحول خلال السنوات الأخيرة. لم أستغرب طبيعة تحوله إذن، لكني كذلك لم أنسَ أن أثني على صراحته مع نفسه وفقهه لما يدور بداخلها، ثم شكرته على حسن الضيافة التي عاملني بها ووجهت إليه بعض النصائح ثم عدت أدراجي إلى منزلي.

وأثناء سيري إلى بيتي لم يدر بخلدي في الطريق سوى سؤال واحد: كيف تحول صاحبي من الإيمان بقضية جماعية كبرى وأصبح منكفئاً على ذاته فحسب؟ وبتوسُع:

ما هذا الذي يحدث لجيل من الشباب انهزم في معاركه الكبرى وصار متقوقعًا داخل نفسه وحياته الخاصة فقط؟

***

أثار السؤال فضولي، ترى هل يمثل تحول صديقي هذا حالة استثنائية أم أنه مجرد حالة متكررة من ضمن ظاهرة اجتماعية واسعة؟ دفعني هذا السؤال إلى أن أطوف مترددًا على أصدقائي ممن خاضوا تجربة مماثلة، تحدثت قليلًا وسمعت كثيرًا، ومع مرور الوقت وكثرة المقابلات، اكتشفت شيئًا هو من الوضوح بمكان: صديقي ليس فريدًا من نوعه وتجربته ليست استثنائية، يبدو أن هذه الظاهرة، التي سنسميها بالفردانية(1)، قد عززت وجودها في المجتمع، أو على الأقل في الدوائر التي أحتك بها.

قررت حينذاك أن أخرج من ضيق الدوائر الاجتماعية الشخصية إلى وسع الشباب العربي عامةً، فأعددت استبيانًا يقيس هذا التحول عند الشباب ونشرته على وسائل التواصل الاجتماعي وطالبت من يشعر بمثل هذه الحالة أن يحكي تجربته في الاستبيان، فاستجاب ما يقارب 200 شابًا وفتاة بالفعل، بعضهم ممن كانوا يحلمون سابقًا بالتغيير ويناضلون في سبيل ذلك، وبعضهم ممن نشأ في بيئة لا تعيش أجواء التغيير والنضال، وحكى الجميع تجاربهم ومشاعرهم تجاه الانغلاق حول الذات وهجر القضايا الأممية الكبرى.

قسمت الإجابات موضوعيًا ونشرتها في فصول الجزء الثاني في هذا الكتاب، وكاد الجميع عامةً أن يتفق على فكرة واحدة: لقد ولى زمن التنظيمات، وذبلت فكرة الانتماء والنضال الجماعي، فبالنهاية ماذا فعلت التنظيمات سوى أن أضاعت لنا حياتنا وأفنت أعمارنا في اللا شيء؟ وماذا جنينا من النضال الجماعي في نهاية المطاف؟ نحن الآن نعيش في زمن الفرد لا في زمن الجماعة، وحان الوقت لبناء أنفسنا، أما بناء الأمة فقد صارت مهمة صعبة التحقيق.

لقد تلخصت الإجابات في أن الشباب معرضين عن كل ما لا يهم حالتهم النفسية

وحياتهم الشخصية، ولاحظت أنهم يعبرون عن هذا الموقف الفرداني عبر مجموعة من السلوكيات مثل: الإعراض عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - عدم الاكتراث بهموم الآخرين وقلة المبالاة بآلام المجتمع الذي يعيشون فيه - غياب الشعور بالانتماء أو الولاء لأي جماعة أو عائلة أو حتى فريق تطوعي - التقوقع داخل فقاعة الحياة الشخصية - إشباع الأنا على حساب أي شيء آخر، وغير ذلك مما سنستعرضه تفصيلًا في الكتاب.

بدا لي إذن أن حالة صديقي الأول لم تكن فريدة من نوعها بل هي فيما أعتقد تعبر عن ظاهرة اجتماعية واسعة النطاق تحول فيها الشباب العربي من الانتماء إلى قضايا كبرى وإفناء النفس في سبيلها، مثل القضية الفلسطينية، أو صراع الجماهير الكادحة ضد طبقة الرأسماليين المتوحشة، أو النضال الشعبي ضد الاستبداد والطغيان، أو تحرير الأمة من قيود عملاء الاستعمار الأجنبي، أو الثورة الشعبية على الظلم والظالمين، أو استرجاع الخلافة وتحكيم الشريعة، أو غير ذلك، إلى الاهتمام بقضايا فردية لا تتجاوز حيز الذات، مثل الاهتمام بالصحة النفسية الشخصية عبر القراءة في علم النفس، وتطوير الذات واكتساب المهارات وتحصيل العلوم، والعناية بالجسد والبشرة وتطوير الصحة البدنية والتمارين الرياضية.

وعبر مزيد من البحث يمكنني القول إن هذه الظاهرة بدأت في الظهور عند الجيل الذي اعتنق قضيةً كبرى في يوم من الأيام ثم تحول عنها إلى الفردانية، وهو الجيل الذي عاصر أحداث الربيع العربي 2011م وما تلاه، المعروف أكاديميًا بجيل الألفية Millennials، الذي يقع مواليده بين عامي 1985م إلى 1996م.

لكن الظاهرة تمددت إلى الأجيال الناشئة في العالم العربي، لا سيما جيل زي Generation Z الذي يبدأ من مواليد 1997م نزولًا إلى مواليد الألفينات، فقد نشأ هذا الجيل في بيئة لا تعرف نضالًا للقضية الفلسطينية أو للربيع العربي، ولا يوجد فيها معاني مثل المقاومة والتضحية والثورة والانتماء للمجموع. إنه جيل تربى في كنف الفردانية ولم يحتك إلا نادرًا بأصحاب القضايا الأممية الكبرى، فلم يطّلع على طريقة لتنظيم حياته وترشيد سلوكياته سوى عبر الطريقة الفردانية.

كما ساعدت السوشيال ميديا هذا الجيل في الاقتراب من ذاتهم والابتعاد عن أي انتماء جماعي آخر، فبحسب الباحثة الأيرلندية ماري آيكن، المتخصصة في دراسات علم النفس السيبراني، فإن الشاب أو الفتاة يدخلون عالم الإنترنت لا ليبحثوا عن مجتمعات أكبر منهم يغيرون فيها قناعاتهم ويندمجون فيها، وإنما يقتحمون الإنترنت بهدف تعزيز قناعاتهم الشخصية وإضفاء مزيد من الاهتمام والتركيز على ذاتهم وأفكارهم وقيمهم الخاصة(2).

نحن إذن في هذا الكتاب سنتجول بين جيل التسعينات والثمانينات الذي عاصر أحداث الربيع العربي ثم هو منشغل الآن بتكوين أسرته وتأمين حياته الشخصية بعدما أفنى حياته في النضال الجماعي، وبين جيل الألفينات (Generation Z) الذي لم ير من الثورات سوى إخفاقاتها ومخلفاتها وتوابعها الضارة بفعل الثورات المضادة، فلم تتسن الفرصة لهذا الجيل للحوق أو الاحتكاك الطويل بأي شخص أو كيان يعزز عنده قيمة التوجه إلى الجماعة، فكانت النتيجة أن اتجه كلا الجيلين إلى سلوك نفس الطريق الفردي للوصول إلى نفس النهاية: الفردانية.

***

وإلى آخر نقطة في هذه المقدمة الطويلة، والتي أرجو ألا تكون مملة، نطرح فيها سؤالًا: هل ظاهرة الفردانية تتعاظم في العالم العربي فحسب أم أنها ظاهرة نامية منذ أمد بعيد في العالم بأسره وليس في عالمنا المنكوب فحسب؟

الحقيقة أن ثمة ثقافات تقوم على المبدأ الجماعي مثل الثقافات الآسيوية والثقافة العربية، فهذه الثقافات تعظم قيم الانتماء للجماعة وتنظر بعين الإجلال إلى الأعراف والتقاليد الاجتماعية كما تتوفر فيها مقومات الانتماء الجماعي والمقاومة الجمعية.

وعلى النقيض، فإن الثقافتين الأوروبية والأمريكية تقومان على المبدأ الفرداني، فالحضارة الغربية تعد الفرد مصدر القيم، وتعلي من شأن الذات على حساب

الجماعة، وتقدس الاختيارات الشخصية مهما كانت مخالفة للأعراف الجماعية.

وحتى يتضح للقارئ مفهوم الفردانية في الثقافتين الأمريكية والغربية(3)، وسعيهما الحثيث لنشر هذه الثقافة في العالم بأسره، يكفينا أن نستعرض بعض الأفلام الهوليوودية التي تعزز من نشر رسالة الفردانية إلى المشاهد.

على سبيل المثال، تأمل معي أفلام الأبطال الخارقين Superheroes والتي تُعد إحدى ركائز هوليوود منذ تأسيسها إلى اليوم، هذه النوعية من الأفلام توضح هذا الاتجاه الفرداني بقوة: فهؤلاء الأفراد «الأبطال» تصورهم الكاميرات بأنهم لا يخضعون لأي منظومة خارجة عن أشخاصهم، مستقلين عن الأعراف الاجتماعية، وساعين إلى تحقيق أهدافهم التي رسموها لأنفسهم حتى لو عارضت أهداف الجماعة والبيئة من حولهم. كما أن «البطل» هو قدوة في ذاته، وهويته تتحقق عبر زيه الخاص وأسلوبه الخاص وطريقة تعبيره الخاصة وأفكاره الخاصة، لا عبر الخضوع للجماعة أو تحقيق هدف مشترك مع المجتمع أو الاندماج مع التقاليد والقيم السائدة(4).

ويذهب فيلم الأنيمشن The Lego Movie إلى أبعد من ذلك ويوسع مفهوم البطولة إلى الأفراد العاديين. فالفيلم يبدأ بنبوءة تؤكد أن ثمة شخص مميز سينقذ العالم من الشر. وخلال أحداث الفيلم يستنفذ الشخص الشرير كل وسعه من أجل منع ظهور هذا المميز، ثم يستطيع القبض عليه في نهاية الأمر، لكن يتضح خلال السيناريو أن الفرد الواحد مهما كان هو المميز، فكل سكان المدينة مميزون، وكل إنسان يستطيع أن يصوغ ما يشاء من قيم وأفكار بشكل فردي إبداعي بحت مستقل عن أي تأثير خارجي(5)

أليس هذا هو بالضبط ما دعت إليه أغنية (أنت استثنائي) التي غناها المطربان المصريان محمود العسيلي وبهاء سلطان، والتي نشرها بنك مصر في رمضان 1441هـ، 2020م؟، فكما تجري كلمات الأغنية: «أنت النسخة الأصلية ضد التقليد، أنت اكتشاف، أنت مش حاجة عادية، أنت غير كل الناس»، وهي كلها عبارات تعزز

من انتماء الفرد لذاته فحسب دون الانتماء لأي جماعة أو لأي شخص آخر، وتعظم من قيمة الفرد وخياراته الشخصية على حساب أي أمر آخر(6)

***

هذه إذن هي حكاية خروج فكرة الكتاب إلى النور: فمن رحم «فضفضة» رُويت لي في جلسة سمر عابرة لم تُخطط لها، إلى زيارات ورسائل لأصدقائي، إلى استبيان لعدد من الشباب والفتيات العرب، إلى تنقل بين بحث وكتب ودراسات، وأخيرًا: إلى القارئ والقارئة الكريمين.

هذا الكتاب إذن ينطلق من فرضية أن حالة الفردانية قد عمّت في الشباب العربي، فالشباب يعزفون عن تحمل مسؤوليات الحياة المشتركة، ويُعرضون عن الانتماء لأي منظمات تلتهم ذاتهم وتملي عليهم شروطًا وواجبات، ويحبون الاندماج في المجتمعات التي تحفظ هوايتهم الشخصية ويتأففون من أي انتماء جماعي يسلبهم قيمهم الخاصة. حتى العمل التطوعي بالنسبة إليهم أصبح ثقيلًا، بل الزيارات العائلية نفسها صارت عبئًا، لماذا أشغل نفسي بالتزام جماعي ويمكنني بدلًا من تضييع ذلك الوقت المهدور أن أتصفح هاتفي الشخصي أو أسمع مقطعًا لطيفًا يجلب إلي راحة نفسية؟!

ويرى الكتاب أن تعاظم النزعة الفردانية بهذا الشكل يتعارض مع الواجبات الدينية والأخلاقية للإنسان المسلم من حيث هو فرد من أمة إسلامية إذا اشتكى منها عضو تداعى لها سائر الجسد بالحمى والسهر(7). وإن كانت الفردانية تحقق جزءًا من الإصلاح المنشود في الفرد إلا أنها تغفل عن الإصلاح المطلوب في المجال العام، ومن ثم فإن إحداث نقطة توازن بين النزعة الفردانية والواجبات الدينية هو هدف الفصل الأخير لهذا الكتاب.

يسلط هذا الكتاب الضوء على إذن ظاهرة الفردانية المتصاعدة حديثًا في العالم العربي، وهدفه أن يكشف الغطاء عن هذه الظاهرة، وتفسير سلوكيات واتجاهات الشباب التي تنبع من الفردانية، وتبيين أثرها على الفرد الواحد سلبًا وإيجابًا،

ومعالجة المحاور التي تتعارض مع الواجبات الإسلامية للشخص المسلم.

وينقسم الكتاب إلى جزئين: الجزء الأول ويضم ثلاثة فصول والجزء الثاني ويشمل ثلاثة فصول كذلك.

في الفصل الأول يتناول الكتاب تعريف الظاهرة وأصولها التاريخية والتداخل بين مصطلحات النرجسية والفردانية والأنانية. أما الفصل الثاني فيتناول التجارب التاريخية المشابهة السابقة لتجربة الشباب العربي في 2020م والتي تحول فيها الشباب من الجماعية إلى الفردانية ويستكشف نفسية الجيل الذي يتربى في كنف هزيمة أحلامه بالثورة والتغيير. وفي الفصل الثالث نستعرض حالة تحول يسار أمريكا من اعتناق الأحلام الجماعية إلى التمحور حول الذات.

ثم ننتقل إلى الجزء الثاني من الكتاب بعدما عرضنا التعريفات والتاريخ والجزء النظري من الكتاب، ونبدأ هذا الجزء بالفصل الرابع الذي نحاول أن نقدم تفسيرًا للظاهرة وأسباب نشأتها في العالم العربي. وفي الفصل الخامس نركز على الأمثلة العملية والتجليات الواضحة لظاهرة الفردانية في سلوكيات الشباب العربي. وأخيرًا، في الفصل السادس، نستعرض الحلول المقترحة لتجاوز حالة الفردانية والحفاظ على قدر مناسب من نزعتنا الجماعية.

على أن الجزء الأول من الكتاب هو الذي يحوز القسم الأكبر من الصفحات، لأني أؤمن أن تبيين المصطلح أهم من مناقشته، وقراءة التاريخ أسبق من قراءة الواقع، وتحليل التجارب المشابهة لنا هو مفتاح فهم تجربتنا الحالية. وكما يُقال بالعامية المصرية «اسأل مجرب ولا تسأل طبيب» ولذا فإننا من بين حالات كثيرة فإننا سنستفيض في دراسة حالة الشباب اليساري بأمريكا حيث نعتبر أنه أقرب حالة لما نعانيه في عالمنا العربي في تقديرنا الشخصي.

ومن المهم في ختام هذه المقدمة أن ننبه القارئ والقارئة الكريمين إلى أن هذا الكتاب ليس نقدًا للنزعة الفردانية ولا يحاول تفكيكها أو الهجوم عليها، بل يعمل أولًا على قراءتها وتحليلها واستكشاف طبيعتها ومبرراتها وآثارها، ثم يقدم محاولة

لتجاوز الجوانب الغير متلائمة مع التصور الإسلامي فيها.

أي أنني سأقدم للقارئ إن شاء الله قراءة متزنة موضوعية قدر الإمكان للنزعة الفردانية، ثم هو - أي القارئ- مسؤول عن مقارنة ما قرأه بحاله هو شخصيًا، فإذا تبادر إلى ذهن القارئ سؤال: ما مدى ملائمة النزعة الفردانية لواجباتي الدينية والأخلاقية؟ وهل أنا مقصر في حق نفسي وفي حق ديني بسلوكي الفرداني؟ فإن القارئ هو من يملك مراجعة حاله بنفسه، وسأترك له المجال ليجيب هو بنفسه ويقيم الحكم المناسب له، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره، ودوري هنا يقتصر على أن أقدم لك تصورًا مضبوطًا عن هذه النزعة وطبيعتها ومظاهرها وسبل تجاوزها ثم أنت مسؤول عن تقييم حالك وعلاج تقصيرك الذي تراه أنت في نفسك، فليس أحد أدرى بحالك من نفسك، والموفق من وفقه الله.

والحمد لله رب العالمين

إسماعيل عرفة

محرم 1442هـ

أغسطس 2020م

الجزء الأول:

نحن لسنا وحدنا في هذا العالم

الفصل الأول: ما هي الفردانية؟

هل فقدنا قدرتنا على الانتماء؟!

من منا لا ينتمي لكيان جماعي ما في حياته؟ ربما ينتمي أحدهم إلى أسرته الممتدة ويعتبر نفسه جزءًا من العائلة التي تضم أخواله وأعمامه وأجداده. شخص آخر قد يشعر بالانتماء للفريق التطوعي أو الجمعية الخيرية التي يشارك في أنشطتها وفعاليتها. واحد من الشباب قد ينتمي لرابطة كروية رياضية يفني نفسه من أجل الانتماء إليها وإلى الفريق الذي يشجعه. فتاة قد تنضم لتنظيم إسلامي، أو يساري، يحمل أهدافاً محددة ويناصر أيدولوجية معينة.

هل هذا الشعور القوي بالانتماء إلى كيان ما الذي كان طاغياً في فترة من الفترات بدأ يخفت مؤخرًا؟! في وقت من الأوقات كانت كلمة (مستقل) نادرة التصور، وأذكر أننا في مصر كنا نتعجب ممن يخوضون انتخابات 2012م مستقلين دون الانتماء لحزب معين، لكن حاليًا صارت كلمة مستقل هي الأصل، الانتماء لكيان ما أمر نادر الحدوث بين الشباب.

يعرّف عالم النفس الأمريكي هوريس إنجلش الانتماء بأنه «اتجاه يستشعر من خلاله الفرد توحّده بالجماعة وبكون جزءًا مقبولًا منها، ويستحوذ على مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه»(8)، إذا تأملنا في هذا التعريف وقسناه على أنفسنا، فربما نلاحظ أن قدرتنا على مشاركة ذواتنا مع آخرين أو مع أفكار وقيم غير تابعة لذواتنا تتلاشى في صمت تدريجي، فنحن لم نعد نحب إنفاق وقتنا مع العائلة، ولا نشعر بالسعادة عندما نضع التزامات أسرية مزعجة، كما نشعر بالثقل من فكرة العمل الجماعي ونفضّل العمل الفردي عوضًا عنه.

لكن لماذا نعاني من هذه الحالة؟! متى حدث هذا التحول في شخصياتنا وأفكارنا؟!

للإجابة على هذا السؤال ينبغي علينا أن ننظر إلى واقعنا والسياق الذي نعيش

فيه: فقد أثر الربيع العربي - وتوابعه - باتساع على جيل الشباب، ولا تزال آثاره تنعكس على ظواهر سياسية واجتماعية واقتصادية وتحولات فكرية ودينية للشباب. بدأ الربيع العربي بحلم متفائل ثم انقلب خريفاً قاتمًا، فوجد الشباب الحالمون بالتغيير أنفسهم مكبلين تحت وطأة التحولات السلبية الأخيرة وعالقين بين الحنين إلى الماضي الرومانسي والخوف من المستقبل القاسي المجهول.

لقد ترك الربيع العربي الشباب في حالة تيه وجودي، ولم يستطع الشباب الصمود أمام التحولات التي تحدث في المنطقة، فعزف الشباب العربي عن الشأن العام كليةً وتخلوا عن رغبتهم في تغيير مجريات الأحداث الكبرى في المنطقة والعالم لأنهم شعروا أنهم فقدوا السيطرة على التأثير في العالم.

هؤلاء الشباب أسسوا أحلامهم وتطلعاتهم على إحداث تغييرات جذرية في المنطقة ولم يتصوروا مستقبلهم إلا في هذا الإطار، إلا أن أحلامهم تحطمت بمعول الهزائم المتتالية على يد الثورات المضادة، وتزامنت موجة الإحباط مع صعود اليمين المتطرف في العالم الغربي جنبًا إلى جنب مع الصعوبات الاقتصادية وغلاء المعيشة التي تفرضها حالة النيوليبرالية المتوحشة في المنطقة العربية.

انسدت الآفاق أمام الشباب إذن، وفقدوا سيطرتهم على كل شيء، المجتمع والسياسة والاقتصاد والدولة، تتردد عبارات مثل (مفيش أمل)، (الوضع أكبر منا)، (مهما فعلنا لن يتغير شيء).

ما الذي تبقى لنا بعد أن تخلينا عن العالم، أو بعد أن تخلى العالم عنا؟

في الحقيقة لم يتبق لنا سوى حياتنا الخاصة. سنلجأ إلى بناء ذواتنا والاهتمام بشؤوننا الخاصة فحسب دون امتلاك أية آفاق مستقبلية تخص الشأن السياسي أو الاقتصادي.

تعبر هذه الظاهرة عن نزعة واضحة للفردانية بدأت تغزو العالم العربي بالفعل، ولم يعد بمقدور الشباب العربي أن يشعر بالانتماء لا لقضية ولا لثورة ولا لتنظيم

ولا لمجتمع، طفق شبح الاغتراب يحوم حول حياتنا ويتردد على نفوسنا بين الفينة والأخرى. يعرّف الدكتور إلهامي عبد العزيز الاغتراب بأنه «انسلاخ عن المجتمع .. وإخفاق في التكيّف مع الأوضاع السائدة في المجتمع»(9).

في هذا السياق توصّل عالم الاجتماع الأمريكي ملفين سيمان إلى تحديد خمسة مفاهيم للاغتراب أطلق عليها تسميات العجز، وفقدان المعايير، وغياب المعنى، واللا انتماء، والاغتراب عن الذات(10). أما الباحث الأمريكي أنتوني ديفيز فقد أجرى بحثاً ميدانيًا في جامعة هارفارد توصّل من خلاله إلى أن مفهوم الاغتراب يصاحبه خمسة آثار مشتبكة وهي: التركيز على الذاتية، وعدم الثقة، والتشاؤم، والقلق، والاستياء(11).

وما يهمنا في هذا السياق أن الاغتراب، والشعور بالانفصال عن الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، يؤدي بالإنسان إلى الإخفاق في التكيف مع المجتمع، وفقدان قابليته للانتماء. نحن صرنا كائنات تتلذذ بالتمحور حول أنفسها ولا تستسيغ الانتماء مع الآخرين.

كلما كان الموضوع يخص (أنا) ازداد اهتمامنا وشغفنا به، وكلما كانت القضية متلقة ب(نحن) أو (هم) فلا نأبه بها.

سلوكنا بين الفردانية والجماعية

إذا أردنا أن نضع تعريفاً لظاهرة الفردانية، علينا أولًا أن نشير إلى أن سلوكنا كبشر هو نتيجة لتفاعل مكونين أساسيين: الأول هو الاعتقاد الشخصي والقيم التي يؤمن بها الإنسان، والثاني هو البيئة الاجتماعية والأعراف الجماعي. ومن هذا المنطلق فإن السلوك ليس نمطًا واحدًا يمكن استنباطه بطريقة ميكانيكية، بل هو متحرك ديناميكي يختلف من إنسان لآخر، فالبعض يفعل شئونه الخاصة بغض النظر عن شؤون الآخرين، أما آخرون فيشاركون مشاكلهم ومشاعرهم وأفكارهم مع محيطهم الاجتماعي.

والعلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعي علاقة معقدة ومتباينة من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر ولا يمكن حدّها أو الحكم عليها بدقة؛ ومن لوازم ذلك هو أن الفردانية الواسعة النطاق التي نشاهدها ونلمسها في المجتمعات الغربية ليست إيجابية على طول الخط، كما أن الجماعية الكائنة في المجتمعات العربية ليست سلبية على طول الخط.

ومن أجل تقريب الوضع للقارئ، فإننا يمكننا رسم خط يمثل الطيف الواسع لأنماط السلوكيات، حيث يقع في أقصى طرفه الفردانية وفي طرفه الآخر الجماعية، وسلوكيات الناس ترسم حدود مواقعهم على هذا الطيف: فإما أن يكونوا أقرب للفردانية وإما أقرب للجماعية، فليس هناك أحد فرادنياً خالصًا كما لا يتصف أحدهم بالجماعية حصرًا، وإنما هو مزيج بين السلوكيات الفردانية والجماعية والفرد يقترب إما من هذه وإما من تلك.

وعلى المستوى العملي، فهناك من الشباب من يعتبر نفسه مستقلًا عن أي انتماء جماعي (عائلة - رابطة مشجعين [ألتراس] - حركة اجتماعية - تنظيم أيدولوجي - فريق تطوعي - حزب سياسي - الخ) ويعيش بصفته فرد فحسب، وهناك من يفني حياته من أجل خدمة هدف جماعي ولا ينظر لنفسه إلا باعتباره جزءًا من الجماعة ويعرّف ذاته بناءً على موقعه في هذه الجماعة أو تلك. هذا الصنف الأول هم الفردانيون، والصنف الثاني هم الجماعيون(12).

متى بدأت الفردانية؟

يمكننا القول إنه منذ 2016م فصاعدًا بدأت ظاهرة الفردانية تزحف نحو مزيد من قطاعات الشباب العربي ليعتنقوها كمنهجية لتفكيرهم ووسيلة لتنظيم حياتهم وسلوكياتهم(13).

لكن هل ظهرت الفردانية من العدم في بيئتنا العربية، أم أن لها أصولاً وجذوراً في التاريخ الحديث؟ لنأخذ جولة سريعة في التاريخ الأوروبي حتى يتسنى لنا فهم

جذور المصطلح.

نمت بذور الفردانية في سياق اجتماعي ترعرعت فيه الليبرالية وضربت بجذورها في الغرب الأوروبي. فمنذ زمن سحيق، وتحديدًا في العصور الوسطى المظلمة، وعلى امتداد حوالي عشرة قرون، تحكمت الكنيسة الغربية تحكمًا مطلقًا في حياة البشر ونزعت حقوقهم المالية والسياسية والاجتماعية وسلبت إرادتهم الذاتية بالكلية. سيطرت الهياكل السلطوية السياسية والدينية على المجال الخاص للأفراد، ولم يستطع الأفراد مغادرة إقطاعيتهم أو التصرف في شئونهم الخاصة في الدنيا أو حتى في الآخرة إلا بإذن من صاحب السلطة الدينية أو السياسية.

تخيل أن الإنسان ما كان يستطيع أن يغادر إقطاعيته بدون إذن سيده؟ ولم يكن للإنسان حق التملك بل يولد أجيرًا ويموت أجيرًا، وإذا فكر في الاستقلال عمن يحكمه فإن السوط ينتظره، أو القتل ربما. وإذا راجع نفسه في مسألة الضرائب فإن الكنيسة له بالمرصاد وستفرش له طريق جهنم فورًا، فسداد الضرائب للكنيسة هي ظل عدل الله في أرضه. أما اختيار من يحكمه ومحاسبته فليس مطروحًا أصلًا. إنه حصار من كل الجوانب.

تحت هذا التحكم المؤسسي الشمولي، طفق الناس يتساءلون: ما قيمة الفرد في التاريخ؟ أين الإنسان وقيمته أمام هذا التغول الجماعي عليه؟ وهل ثمة أفق ممكن للنظر إلى الفرد كوحدة مستقلة خارج إطار المؤسسات الدينية والسياسية؟ أم أن الفرد لا يكون فردًا إلا بانتمائه إلى جماعة من طبقة رجال الدين أو النبلاء أو الإقطاعيين؟!

دفعت هذه التساؤلات المفكرين الأوروبيين إلى البحث عن إجابات لها، رأى الفيلسوف الفرنسي فولتير على سبيل المثال أن الإنسان هو وحده من له الحق في تقرير مصيره دون الحاجة لوجود أي قوة اجتماعية خارجية تؤثر عليه، أما نظيره السويسري جان جاك روسو فقد نادى بالمساواة بين البشر جيمعًا إذ أن كل فرد مسؤول عن حياته الخاصة مسؤولية كاملة.

وفي القرن الثامن عشر نقل الاقتصادي الاسكتلندي آدم سميث هذه الأفكار من عالم الفلسفة إلى عالم الاقتصاد، عندما صرح بأن كل فرد يسعى إلى تحقيق رغباته غريزيًا، ولا ينبغي أن تُوضع أي حواجز على هذه الدوافع لأنها الضامنة الوحيدة لتحريك السوق وتحقيق أكبر قدر ممكن من الرفاه والسعادة للأفراد(14).

تنوعت إذن الأفكار الليبرالية والرأسمالية والديمقراطية لكنها اتفقت جيمعًا على أمر واحد: إحلال الفرد مكان الجماعة وتقديس إرادة الفرد الحرة. ومع اختراع المطبعة وبداية نشر الكتب للجماهير، أخذت الأفكار الفردانية الاستقلالية تتصاعد عند المفكرين والنخب والشعوب. فالأمر جذاب بالنسبة لعوام الناس، أخيرًا فهناك من يطالب بتحررنا من هذا الظلم!

لكن المواجهة ظلت غير متكافئة: ففي مقابل بعض الشرذمة القليلين من العوام الرعاع الذين يطالبون ببعض حقوقهم المسلوبة، كان الإقطاعيون ورجال الدين ينظرون إلى الناس نظرة أدنى من البهيمية، فهؤلاء الهمج مجرد تروس في ماكينة كبرى تتحرك من أجل غرض اجتماعي كبير وأنبل من حياتهم الفقيرة التافهة. كانت الإقطاعيات والكنيسة هي السلطة المحركة للأفراد، أما الأفراد فلا سلطة لهم وحدهم على شيء.

هذا الوضع البائس انقلب دراماتيكيًا منذ القرن التاسع عشر فصاعدًا، فقد تنحت التكوينات الاجتماعية وابتعدت الحركات والمؤسسات الكبرى عن قيادة المشهد، ولم يعد المجتمع أو حتى الدولة القومية أو الكنيسة هي المثل الأعلى الذي ينبغي التضحية من أجلها، لقد صار كل شيء في الدنيا مسخرًا للفرد، ومثلت الثورة الفرنسية انتصارًا لقيم الفردانية على قيم الجماعية. فقد مُنح للفرد استقلالية عن المجتمع، وصار يُنظر إليه لا كترس صدئ، بل كوحدة حرة تتمتع بحقوق طبيعية، له حرية التصرف في ممتلكاته وحرية التجول في أي مكان شاء، ولا يمكن قمعه أو إدماجه في أي حركة دون رضاه الشخصي أولًا وقبل أي شيء(15). وبعدما نال الرجال هذه الحقوق انتقلت إلى المرأة كذلك بفعل الحركة النسوية الكلاسيكية.

لم يعد الفرد إذن ينصاع للمجتمع، ولا ينضم لجماعات، ولا يعد نفسه جزءًا من عائلة ممتدة أو مؤسسة ما، وإنما صار الفرد مستقلًا عن أي تنظيم اجتماعي، مقررًا لنفسه منهج حياته وأسلوب معيشته ومطورًا أفكاره وقيمه الخاصة. وبتعبير الباحث المغربي الطيب بو عزة: «اتخذت الليبرالية من الرؤية الذرية Atomic view للتاريخ مدخلًا لتسويغ النزعة الفردانية المتطرفة.. إن الليبرالية تتمحور حول الفرد، وتتجاهل الجماعة»(16).

وبلغت قوة النزعة الفردانية في الثقافة الغربية إلى حد أن الكنيسة المسيحية نفسها لم تسلم من التحوير لصالح إعلاء كلمة الفردانية، فكما يرى الأنثروبولوجي الفرنسي لويس دومون في كتابه (مقالات في الفردانية) فإن الفردانية بدأت في التغلغل داخل جسد الكنيسة على يد جون كالفن، المصلح المسيحي الفرنسي، في القرن السادس عشر، ثم تطورت طبيعتها مع لفياثان توماس هوبز، والعقد الاجتماعي لروسو، والتسامح لجون لوك، وشيوع منتجات الفلسفة الليبرالية مثل حقوق الإنسان والديمقراطية، عبر أنحاء القارة الأوروبية العجوز(17).

فالكتاب المقدس بالنسبة لهذه الحركات الإصلاحية ليس حكرًا على رجال الدين، وإنما يستطيع أي إنسان أن يقرأه ويفسره كما شاء، طبقاً لانطباعه الشخصي عن النص المقدس. ألا يذكرنا ذلك بظاهرة متشابهة يحاول البعض تطبيقها على القرآن حاليًا؟!

على أي حال يلخص ماكس فيبر، المنظر الألماني، الوضع في كتابه التأسيسي (أخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)، حال الفترة الانتقالية تلك، مؤكدًا أن الأخلاق المسيحية مثلت قديمًا قواعد السلوك المقبولة اجتماعيًا، حيث قدمت النصوص الدينية تعليمات واضحة حول كيفية التصرف في المجتمع باستعمال مفاهيم إنسانية مباشرة، وهي رسائل اعتُبِرت على أنها مبادئ مطلقة أخلاقيًا وملزمة للجميع.

ثم بدأت القيم الاجتماعية في التزعزع، وتعرضت الثوابت للاهتزاز ووُضعت القيم

الجماعية محل التساؤل، إن كل ما هو قديم ينبغي محاربته، وكل ما هو تراثي يجب هدمه، الآن لا مساحة إلا للفرد ولا صوت يعلو فوق صوته، أما الملوك ورجال الدين والإقطاعيون فهم الشياطين الذين عاثوا في الأرض فسادًا. ونتيجة لهذا التفكك المؤسسات للجماعية وعلى رأسها سلطة الكنيسة، ظهرت منظومة سلوكيات جديدة قائمة على أن الفرد هو مصدر القيم وليس المجتمع.

قارن أيها القارئ برأي فيبر فيما حدث في الماضي وبين حالنا الآن: يرى فيبر أنه في الماضي كان الفلاسفة وقساوسة الكنيسة الكاثوليكية (يقابلهم - مجازًا- العلماء والفقهاء وأهل الحديث والقرآن، مع الفارق بالطبع) هم من يحددون قيم المجتمع من خلال انتماء الناس لقيمة أعلى من الفرد الواحد مثل (العائلة الممتدة(18) وصلات القرابة - الخير العام - تنفيذ خطة الله في الأرض - صلاح المجتمع ككل - خدمة طبقة من الناس مثل الإقطاعيين أو النبلاء - العشيرة والقبيلة - الخ)، أما الآن فقد صار الفرد هو من يصوغ قيمه الخاصة التي تخدم ذاته ومصلحته فحسب(19) (20).

زمن الجماعية الجميل

على الناحية الأخرى من العالم الغربي كان المجتمع العربي مجتمعًا جماعيًا بامتياز، فقد شكل الدين الإسلامي سلوك المسلمين طيلة تاريخهم باعتباره مصدرًا للحكم والتشريع ومنهجًا للحياة والسلوك، وعليه كان المجتمع القائم على الإسلام يشد بعضه بعضًا وتعلو فيه قيم الأسرة والأمة وصلات الرحم.

وثمة عاملان آخران أضافا إلى أواصر العرب مزيدًا من التماسك والوحدة، الأول هو تكوين العرب القبلي العضوي وتعظيم العرب الهائل للعشائر والقبائل وأعرافها ومنظومة سلوكياتها، والثاني هو ظهور للفرق العقدية والمذاهب الفقهية والطرق الصوفية وتعاظم نفوذها في العالم الإسلامي.

إن الفرد المسلم كان دائمًا منتميًا بطبيعة إسلامه إلى تكوين اجتماعي ما، يستقي

منه قيمه، ويشكل من خلاله تصوراته، ويتعلم دينه وسلوكياته عبر الاختلاط معه والتعايش معه.

ولذلك كان المسلم يفني حياته من أجل خدمة الدين أو من أجل خدمة الآخرين.

ويؤكد الباحث اللبناني حازم صاغية على نفس الأمر قائلًا إن الطبقة الاجتماعية والدين الإسلامي استبعدا مفهوم الاستقلال الكامل لدى الفرد، وأصرا على أن الفرد يضحي بنفسه من أجل خدمة غاية أكبر أو انتماء أوسع من ذاته(21).

انعكست هذه النزعة الجماعية على ما أيقظته العقيدة الإسلامية من معانٍ سامية داخل جسد الأمة الإسلامية مثل التضامن والتكافل والنصرة والمعونة والتعاطففي ردانيين ، وهي معانٍ لا تجد لها مكاناً في العالم المادي الفرداني، فكان الإسلام هو صاحب الفضل في تكوين تلك المشاعر الراقية التي تنبّهت لتلك الدقائق، في كلّ زاوية من زوايا المجتمع، وكلّ منحى من مناحي الحياة.

ومن أمثلة هذا التكافل: معاونة المسلمين لبعضهم البعض في تربية الأبناء وتعليم الأطفال في دور الكتّاب ومحاضن التربية، التي قامت على الأوقاف في غالب الأمر، لتلقين المسلمين قيم الآداب العامة وطلب العلم وخدمة الدين(22).

كما سعت المدارس الإسلامية الجماعية إلى البناء الديني والثقافي والاجتماعي للمسلمين مع نقد الحكام الظلمة وإصلاح الأخلاق الفاسدة والانحرافات الفكرية والعقدية، ولذا لم يكن صلاح الدين فردًا محررًا للقدس بصفته بطلًا فردانيًا كما يتصور البعض، وإنما كان تكوين الأمة حينذاك نابع من اتحاد عشرات الاجتهادات الجماعية وكانت جهود صلاح الدين تمثلًا ونتاجًا وترشيدًا لهذا الاتجاه الجماعي لا أكثر(23).

امتدت سلاسل العطاء وتميز المجتمع الإسلامي بإنشاء الأوقاف الإسلامية بوصفها تجليًا مباشرًا من تجليات معاني العطف والتكافل والتماسك بين المسلمين، تكاتف المسلمون وأبرزوا هذه اللُحمة من خلال أوقاف اندثرت في زماننا هذا، فقد أنشأ

المسلمون أوقافًا للألبان يشرب منها المارة إذا شعروا بالعطش ليرووا ظمأهم، كما أنشأوا أوقافًا للفنادق والاستراحات للمسافرين وعابري السبيل.

وحتى للكلاب الضالة التي لا تجد لقمتها، فقد وزع المسلمون عليها فائض إنتاجهم في أوقاف خصصت لذلك تحديدًا، حتى لا يلقوا بالطعام على الأرض هدرًا دون فائدة، كما يفعل المزارعون الغربيون في النظام الرأسمالي حيث يسكب المزارعون في كندا 5 مليون لتر من اللبن أسبوعيًا على الأرض حتى يحافظوا على ثبات سعر اللبن في الأسواق، كما تهدر مزرعة أمريكية واحدة 750 ألف بيضة أسبوعيًا لذات الهدف أيضًا، في الوقت الذي يموت فيه 9 ملايين شخص سنويًا من الجوع.

على أي حال، لنعد إلى عالمنا الإسلامي قبل أن تغزوه لوثات العلمانية، لقد وظف الإسلام الانتماءات الجماعية من أجل خدمة غاية تشمل كل البشر وهي تحقيق مفهوم العبودية لله. وعليه كانت القبائل المسلمة تتطوع أحيانًا من أجل خدمة سبيل أو وقف معين، أو الرباط على ثغر معين من ثغور المسلمين، أو الاشتهار بالنفقة على الحجاج الفقراء وتوفير الاستراحات لعابري السبيل، أو التقدم والشجاعة في حروب المسلمين، أو توفير الأمان المادي والاجتماعي لأهل بلدة ما.

بالطبع لم تخل هذه الانتماءات الجماعية من أخطاء، فالتعصب المذهبي والعصبية القبلية الجاهلية والخضوع الإجباري لمشايخ وأعراف القبيلة كانت من سلبيات هذه الانتماءات الذي تحدث عنها العلماء سلفاً وخلفاً كثيرًا، لكننا لا نتناول السلبيات والإيجابيات قدر ما نتناول مفهوم الجماعية ذاته في البيئة العربية الإسلامية.

وبالجملة فإن الإسلام، وفقاً للباحث والصحفي جادفري جانسن، «قد تمكن من الناس لأنه رشّد وعزز البنى الاجتماعية مثل الأمة والعائلة الممتدة والعشيرة والقبيلة، وهذه المؤسسات الاجتماعية بدورها دعمت وغذت الوجود الإسلامي»(24).

على كل حال، وبكل أسف، بدأت كل هذه السلوكيات الجماعية في التحلل والانهيار مع قدوم الاحتلال الأجنبي، المسمى زورًا بالاستعمار، إلى بلدان العالم الإسلامي

وبقاء أذنابه وعملائه بعد رحيله. فمنذئذٍ بدأت سلوكيات وقيم المجتمع الغربي في الوفود إلينا، وجاهد المحتل وذيوله في سبيل نشر منظومات أفكاره وقيمه عبر منابره الثقافية والإعلامية والدينية والاجتماعية، وبالطبع العسكرية.

كان من أبرز انهيار النظام الاجتماعي الإسلامي هو تهشم منظومة الأوقاف وتفكك القيم الأسرية وانشغال المسلمين بحالهم الشخصي بعيدًا عن حال الأمة، فبسبب الخناق الاقتصادي المفروض على المسلمين تمحور المسلمون حول لقمة عيشهم واضطربت تصوراتهم العقدية الدينية وغابت القضايا الكبرى من أذهان المسلمين، وصار المسلم لا ينشغل إلا بنفسه ولا ينادي إلا بـ(نفسي نفسي).

ولذا يؤكد الدكتور محمد المجذوب، الأستاذ بجامعة النيلين بالخرطوم، أن هناك «اتجاهًا استعماريًا لإكساب الإنسان المسلم في العالم العربي للقيم الفردانية الغربية، ومن ثم تغييبه من أي بُعد جماعي، وهذا الاتجاه ليس عشوائيًا وإنما هو تابع لثقافة الهيمنة الغربية ورغبتها في تمديد نفوذها عبر أنحاء العالم».

ويرجع المجذوب إلى أصول هذه النزعة الفردانية من أجل فهمها في سياقنا المعاصر مستكملًا بقوله: «فالليبرالية تعمل على تحليل الظواهر الجماعية وتحويل المجتمعات الجماعية القائمة على التكافل والتعاطف والتناصر إلى فردانية أنانية لا تعرف إلا المصلحة الخاصة. فالفردانية تجعل الإنسان يتمحور حول ذاته ولا يرى إلا ذاته في الوجود الاجتماعي والأخلاقي. وعندما ترتبط المنفعة بالشهوانية فهو توجه نحو تدمير البنية الاجتماعية والأخلاقية للمجتمعات الجماعية. الحضارة تصدّر الفردانية لإجهاض ما تبقى للمجتمعات من قوة، في سعي حثيث لاكتساح القيم الفردانية المادية»(25).

ومن هنا يمكننا أن نقول إن الفردانية بصفتها ظاهرة دخيلة على المجتمعات العربية فإنها حاصلة في إطار معركة دائرة بين الشرق والغرب، وتدافع دائم بين الأصالة والعولمة، وصراع قائم بين الانتماء للتراث والتحلل منه، بين الاتحاد والتفكك، بين التمسك بقيم الحضارة العربية الإسلامية والتطبيع مع قيم المحتل،

ولا يمكن قراءة ظاهرة الفردانية بعيدًا عن هذا الصراع، فمن المهم لنا استحضار هذا البعد أثناء قراءتنا للظاهرة، لأنه سيكون مدخلًا حيويًا لتفسير اتجاه الأنظمة الاستبدادية لنشر الفردانية في المجتمعات العربية، كما سنرى.

الفردانية والنرجسية والأنانية

نختم هذا الفصل إذن بتعريف ثلاثة مصطلحات تتداخل مع بعضها البعض ويقع في كثير من الأحيان الخلط بينهم، فما الفرق بين الفردانية والنرجسية والأنانية؟ تبدو هذه الكلمات متشابهة في أول الأمر لكننا سنبين الفرق بينهم من أجل تحديد موضوع الكتاب.

خرجت الفردانية التي نقصدها في هذا الكتاب من الفلسفة الليبرالية الرأسمالية، لكنها تعرضت لقليل من التغيير ولا نعني بها اليوم ما كانت تعنيه الكلمة سابقاً. فمعنى الكلمة في الماضي كان يأخذ منحى فلسفيًا غزيرًا لكنه الآن أخف من حمولته الفلسفية الثقيلة وأقرب إلى حالة نفسية منه إلى إطار فلسفي.

فالفردانية اليوم تستخدم لوصف خصائص الفرد النفسية مثل: الشعور بالهوية الشخصية طبقاً لأهداف الفرد وقيمه التي يصوغها لنفسه شخصيًا. كما أنها تستخدم وفقاً لتعريف ماسلو (تحقيق الذات) والتي تعني السعي من أجل أن تكون ذاتك بشكل حقيقي وأصيل ومعبر عنك(26).

لكن التعريف الأهم والذي استقررنا عليه في هذا الكتاب للفردانية هو نفس تعريف الباحث الهولندي جيرت هوفستيدي ألا وهو: «الشعور بالاستقلالية عن الجماعات والمجموعات والتنظيمات والعائلات، وأي ارتباط جماعية أخرى»(27).

أما النرجسية فيرى الباحث النفسي بيتر تشارلستون أنها: «السعي وراء الإشباع النابع من الغرور أو الإعجاب الأناني بالصورة والخصائص الذاتية المثالية».(28)

أو بألفاظ أخرى، فإن الفردانية هي أنا أولى من كل شيء، وكل ما دوني فهو هامشي. وعكسها الجماعية. ولا تحمل في الغالب دلالة سلبية مباشرة أو غير مباشرة.

أما النرجسية فهي أنا أفضل من كل شيء، وكل من دوني أقل مني. وعكسها التواضع. وتحمل دلالة سلبية غير مباشرة إذ أن النرجسي يمتلك اهتمامًا استثنائيًا بالذات أو الإعجاب بها، لكن بدون ضرر لازم على الآخرين، لكنها تحمل تهديد التكبر والعجرفة.

والأنانية هي أنا قبل كل شيء، وكل ما دوني لا يستحق. وعكسها الإيثار. ودلالتها سلبية مباشرة إذ أن الأناني يخدم مصلحة نفسه في مقابل ضرر الآخرين.

وتتداخل المعاني الثلاثة بشكل أو بآخر بين بعضها البعض، بحسب اختلاف التعريفات لدى الأكاديميين والباحثين، لكن على أي حال سنركز في هذا الكتاب على الفردانية بالتعريف الذي أوردناه أعلاه، وسننتقل الآن في الفصل التالي إلى بعض الحالات التاريخية التي تشبهنا: جيل كامل تحول من الجماعية إلى الفردانية، ونستكشف سمات وطبيعة هذا الجيل وما مر به من تحولات وأحداث.

الفصل الثاني: هزائم نفسية

ليس هناك شيء جديد في هذا العالم سوى التاريخ الذي لا نعلمه.

الرئيس الأمريكي الأسبق هاري ترومان

في عام 2001م نشر الباحث اللبناني حازم صاغية كتابه (مأزق الفرد في الشرق الأوسط)، قال صاغية إن الإنسان في المنطقة العربية لم يحقق فردانيته بعد لأنه لا يزال خاضعًا للجماعة بتشكيلاتها المختلفة (العائلة، العصبة، القبيلة، الحزب، التنظيم، الدولة، الوطن، الخ) قائلًا بأن هذه التشكيلات «مازال لها الريادة في مقابل الفرد».

وذكر صاغية أن الثقافة العربية الإسلامية تقدّم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ويذوب فيها الفرد لصالح الجماعة ويعتنق القيم التي تصوغها الجماعة لا تلك التي يصوغها بنفسه. في حين أن الثقافات الغربية (الأوروبية والأميركية) تقدم مصلحة الفرد على الجماعة وتتعامل معه على أنه كينونة مستقلة بذاته بعيداً عن ارتباطاته الجماعية الآخرى وبغض النظر عنها(29).

واليوم، في 2021م، أعتقد أنه لو أتيح لصاغية إعادة الكتابة حول الموضوع، لبدا الأمر مختلفاً تمامًا. إن الإنسان العربي الآن لا يعترف بأي سلطة تتجاوز سلطته الشخصية، وكل ما تفرضه عليه أي أعراف أو قيم جماعية هو محل شك واستهجان.

في بداية هذا الفصل إذن سنبدأ بسؤال يساعدنا على تحديد دوافع الشباب للتحول للفردانية: ما هي الحالة النفسية للجيل الذي ينفق عمره في الحلم بالتغيير ثم يُصدم بالهزيمة وتتحطم أحلامه؟ قد تبدو الإجابة سهلة: بؤس وإحباط واكتئاب، لكن بمزيد من البحث يمكننا الكشف عن سلوكيات وأبعاد أخرى، لذا فإننا سنخصص هذا الفصل لاستعراض ثلاث تجارب تاريخية في سوريا ومصر مشابهة لحالة الشباب العربي الآن، تجتمع كلها على حالة نفسية مقاربة: الهزيمة النفسية أمام المستبدين.

من الانتماء إلى الفراغ

قد يصعب على أحدنا في هذه الأيام تخيل كيف كان حال الشباب العربي في الستينات والسبعينات، فنحن الآن نقضي فراغنا على السوشيال ميديا ونتصفح وسائل التواصل كلما طرق الملل أبواب حياتنا. لكن في الماضي كان الوضع مغايرًا، فالمزاج الشعبي العام والروح السائدة بين الشباب لم تكن تملؤها السوشيال ميديا، بل السرديات الكبرى.

فخلال الستينات والسبعينات كانت الحركات اليسارية المعارضة تملأ أركان العالم الإسلامي (والغربي كذلك، وفي الشرق كان نموذج الاتحاد السوفيتي هو قبلة اليسار في العالم)، وكانت مصطلحات ومفاهيم مثل الثورة والعدالة الاجتماعية وتغيير النظام وصراع الطبقات والكفاح ضد الاستعمار شائعة للغاية ويحتك بها غالبية الشباب العربي فضلًا عن الانضمام إليها والنضال من أجل تحقيقها على أرض الواقع.

كانت الأحزاب والحركات الشيوعية والاشتراكية توجد داخل كل البلدان العربية، وتتغلل أفكارها داخل أوساط الشباب وطلاب الجامعات والمثقفين والعمال ورجال الدولة والجيش، وقد استطاع بعض اليساريين في بعض الدول الحصول على السلطة بالفعل وغلفوا حيازتهم للسلطة بغطاء القومية العربية، ومن ثمّ كان الاتجاه اليساري فارضًا نفسه مستلهمًا قوته من تفوق الاتحاد السوفيتي في شرق العالم كقوة عظمى.

وبعد أفول اليسار في العالم العربي وصعود التيار الإسلامي تكاثرت التنظيمات الإسلامية، ورُفعت مع قدوم الألفية شعارات كبرى مثل (الإسلام هو الحل) و(تطبيق الشريعة) و(عودة الخلافة) التي شاعت وتداولت بكثافة في الأوساط الشبابية.

وما ساعد في تأجيج نار المارد الإسلامي هو أن هذه الفترة امتلأت بالأحداث الإسلامية الهائلة، تبدأ من قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979م، ثم ارتفاع لهيب المقاومة الأفغانية ضد الروس وانطلاق الجهاد الأفغاني بين أعوام 1979م و1989م.

كما أضافت أحداث التسعينات وعلى رأسها: مذابح البوسنة والهرسك، والجهاد

الشيشاني، والصحوة الإسلامية في المملكة السعودية، مزيدًا من الاشتعال إلى جذوة العاطفة الإسلامية في نفوس شباب الأمة العربية الإسلامية، لذا فقد صحبت هذه الفترة زخم وتعاطف شعبين واسعين، ويمكننا بكل ثقة أن نقول إن هذه الفترة كانت الفترة الذهبية للحالة الإسلامية تاريخيًا.

ومع نهاية عام 2000م اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية، فتحولت أنظار الناس من القضية الإسلامية العامة إلى القضية الفلسطينية خاصة، وشكل استشهاد الطفل الفلسطيني محمد الدرة أمام أعين الكاميرات مشهدًا طُبع في أذهان العرب حينذاك، وأثار هذا الحدث موجة تضامن هائلة مع القضية الفلسطينية شدت أعين الشباب إليها، حتى أن القنوات الفضائية لم تكن تذيع إلا أوبريت (الحلم العربي) الذي شارك فيه مجموعة من المطربين العرب مصحوبًا بمشاهد تصويرية من معاناة أهل فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني.

ضع نفسك في وسط زخم هذه الأحداث العظيمة كلها، كيف سيكون شعورك وقتها؟

إن هذا الترويج الهائل للحفاظ على المقدسات الإسلامية ومناهضة الاحتلال كان له أبلغ الأثر في تنمية حس عام بالانتماء إلى الأشقاء الفلسطينيين والرغبة في دعم المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيوني ورفض التطبيع مع الكيان بأي شكل من الأشكال، ولم يكن يجرؤ أحد على مجرد التفكير في التطبيع معهم في أي مجال إعلامي أو رياضي أو علمي أو سياسي أو غير ذلك، إذ كان المزاج العام الشعبي رافضًا لسياسة التطبيع قولًا واحدًا، حتى لو لم تكن مسألة التطبيع على أجندة الأنظمة الحاكمة أساسًا.

وحتى الشاب الذي لم يكن منشغلًا بالسياسة، أو بعيدًا عن الدين، فإن القضية الفلسطينية عنده كانت على رأس أولوياته الفكرية، وفي الوقت الذي يعزف فيه تمامًا عن أي نشاط سياسي إلا أنه ربما كان ليشارك بقوة في الفعاليات والمظاهرات التي تناصر القضية الفلسطينية.

إن أوبريت الحلم العربي وحد كان كفيلًا بإراقة دموع الشباب والفتيات العرب كلما أذيع على الفضائيات.

ثم مع حلول عام 2011م هلت بشائر الربيع العربي وصار الشباب العربي يعرّف نفسه بأنه جيل الثورة وسُميت دفعات الجامعات بدفعة الثورة وحتى الشوارع ومحطات المواصلات العامة والمحلات الجديدة صار أصحابها يرخصونها باسم الثورة، لقد تفاقم حس الانتماء إلى الثورة والتضحية بالنفس من أجل المجتمع والجماهير والوطن إلى حد لم يبلغ له مثيل وشعر الجميع بأنهم جزء من قيمة جماعية تتجاوز مصلحتهم الذاتية وقيمهم الخاصة.

لكن انقلب المشهد تمامًا حاليًا، في 2021م، ولم تعد هناك لا ثورة ولا قضية فلسطينية، وتقزمت الحركات التغييرية والتيارات الإسلامية في العالم العربي، وهرمت الحركات اليسارية فصارت برامجها وخطاباتها خارج التاريخ والجغرافيا، كما أستهلكت شعارات التغيير والنضال والثورة والإسلام هو الحل، وصار المشهد الاجتماعي فارغاً من أي مشروع ذي مضمون حقيقي يعبر عن تطلعات الشباب والجماهير ويناضل من أجل تحقيقها، وفترت رغبة الشباب في أي انتماء لأي تنظيم أو جماعة، وصار الباب مفتوحًا أمام الاستبداد والتطبيع مع الكيان الصهيوني بلا أي مواراة ولا خجل.

خلاصة ما وصلنا إليه إذن في الوقت الحالي، بعد سلسلة طويلة من الأحداث، تتخلص في جلد الفاجر وعجز الثقات، فضّل الشباب الاتجاه إلى حياتهم الخاصة، فهجروا الانتماءات، وألقوا السرديات الكبرى والشعارات الرنانة والجماعات المتكلسة وراء ظهورهم، ومضوا يشقون طريقهم في حياتهم الخاصة فحسب. في هذا السياق، كيف يمكننا قراءة أنفسنا بشكل أعمق؟!

لعل من أولى خطواتنا نحو فهم الحالة التي نعيشها حاليًا هي أن نؤمن بأننا نحن لسنا وحيدين في هذا العالم، أي أن ما يحدث لنا الآن كشباب وما نختبره من تحول إلى الثقافة الفردانية والتقوقع داخل حياتنا الخاصة هو عينه ما تكرر سابقاً في

تجارب تاريخية مشابهة، في مصر وفي سوريا، بل وفي الولايات المتحدة وأوروبا.

إنها قصة جيل تكاد تتكرر بحذافيرها: جيل يحلم بالتغيير ويفني عمره من أجل ذلك، ثم ينال هزيمة على يد الأنظمِة الديكتاتورية والرجعية، فيصاب الشباب بالتيه والحيرة، ثم يقررون في نهاية المطاف ترك الشأن العام والانسحاب إلى حياتهم الخاصة، ويخرج من بعدهم من أجيال لا يعرفون شيئاً عن الثورة أو النضال ولا يتجاوزون إطار (أنا) في التخطيط لحياتهم.

جيل مشتت

فمثلًا إذا أخذنا مذبحة حماة عام 1982م والتي استباح فيها النظام السوري مدينة حماة وعاث في شوارع المدينة تقتيلًا واقتحم البيوت وبقر بطون الأمهات وقتل في هذه المجزرة ما يفوق 40،000 مدني سوري في أقل من شهر واحد فقط، سنجد أن ما حدث لجيل الشباب حينذاك كان مشابهًا.

كانت هذه الأحداث دامية وصادمة للشعب السوري في الوقت ذاته، لا سيما أن الإسلاميين كانوا يتجهزون لمقاومة النظام وصدروا خطاباً يشحذ الهمم وينادي بالتضحية من أجل الشعب والقضية، فارتفعت معنويات الشباب إلى السماء وطغت عليهم حالة ثورية عامة شعلتها لا تنطفئ، لقد تأهب الجميع وظنوا أن عمر النظام قد شارف على الانتهاء وأنهم بأيديهم سيغيرون مجرى الأحداث في المنطقة بأسرها، لكن بسبب مجموعة من العوامل فشلت الانتفاضة وحدث ما حدث من مأساة وإجرام منقطع النظير.

فماذا كان رد فعل الشباب إذن إزاء هذا الحدث؟ حينذاك لم تكن وسائل التواصل متاحة بعد فلم تكن الشهادات مسجلة، لا سيما أن أغلب الشباب الذين عاصروا هذه المحنة قد نُفوا وهاجروا خارج البلاد واستقرت أوضاعهم المعيشية بالخارج. بل أن الباحث عبيدة عامر يقول إن هذا الجيل من المهاجرين: «لم يعرف بلاده إلا عبر ثورة 2011م وبعض الذكريات التي تناقلها آباؤهم وأجدادهم»(30).

لكن يكشف لنا المُنظّر عمر عبد الحكيم إحدى جوانب التيه الذي أصاب الشباب وكيف أن جيلًا كاملًا تخلى عن أحلامه الجماعية وانشغل بحياته الخاصة، بعدما قتل النظام كل ما تبقى من أمل في نفوس الشباب.

يقول عبد الحكيم: «بعدما قدم الشباب من جهاد وفداء في الداخل وما تحملوا من عناء في الدعوة إلى الله طيلة سنوات.. وبعدما رابط الكثيرون في الأردن والعراق بانتظار ساعة العودة لنصرة دين الله، وبعدما قدم المئات تاركين أعمالهم ودراستهم للمشاركة في شرف الجهاد، انصرف الكل بين عائدٍ لسابق حياته سعيًا على نفسه وعياله، وبين باحث عن مستقبله بعد تلك الفترة التي أصبح يعتبرها أنها كانت ضياعًا للوقت.. كان الإحباط هو العامل المشترك واليأس القاتل شبه مسيطر على الجميع، وفرط عقد الشباب، وساح معظمهم في أقطار الأرض الأربعة يلتمسون حياة واستقرارًا جديدًا في عمل أو دراسة».

ويستكمل عبدالحكيم: «كانت الآمال بفرج الله ونصره ماثلة في رؤوس الكثيرين ولكن ما من أحد كان على مستوى التفكير في مخرج، فالخطب جلل.. قليلون أولئك الذين فكروا في حل بديل وضاعت أفكار من فكّر في زحمة الأحداث، وانصرف كلٌ لشأنه.. وهكذا كان الدمار في قاعدة الشباب كاملًا تقريبًا»(31).

نفاد الصبر

لنترك المشهد السوري ومأساويته وننتقل إلى مصر، تحديدًا في أواخر التسعينات، سنرى أن تلك الفترة كانت تتصف بسلسلة من الأحداث الدامية والعلاقة العنيفة بين سلطة مبارك والجماعة الإسلامية، كانت للجماعة الإسلامية قوة ضاربة وظهير شعبي قويان، وانضم الآلاف إلى الجماعة وأعلنوا معارضتهم لمبارك، وارتفعت وتيرة المواجهات بين الجماعة والنظام وظلت أعداد الجرحى والقتلى والمعتقلين تتصاعد بلا توقف.

ومع تزايد عدد المظاهرات والأتباع، وغلبة الفكر الإسلامي على الشعب وتوقد حماسة الشباب ظنت الجماعة أنها على بعد خطوات من التمكين في مصر، وبات

الأمل بتطبيق الشريعة يلوح في الأفق أمام شبابها، لكنها لم تستطع الصمود أمام ضربات الأمن المتوالية، فأعلنت الجماعة مبادرتها لوقف العنف عام 1997م وتراجعت عن أحلامها بالتغيير المجتمعي الجذري(32).

يحلل الباحث الراحل حسام تمام وضع الشباب الذين -كما حصل لزملائهم السوريين في حماة- وجدوا أنفسهم وقد استهلكهم الانتماء الجماعي للجماعة الإسلامية طيلة سنوات مديدة، ويرى تمام أن أعضاء الجماعة قد اعتنقوا أفكارًا فردانية منذ بداية الألفينات وتمحور أعضاؤها حول ذواتهم للبحث عن الاستقلالية والخصوصية في عالم جديد مضطرب.

يحكي تمام: «كانت توبة معظم الجهاديين التائبين مقدمة لانسحابهم من الحياة العامة والبدء في رحلة البحث عن حياتهم الخاصة التي توقفت ساعتها عند البعض كما كانت قبل نحو عشرين عاماً. لقد خرجوا الى واقع جديد من دون تأهيل كاف ولا إمكانات لازمة ومن ثم انهمكوا سريعاً في طاحونة البحث عن حياة كريمة في بلد لم يعد كالذي كان وقت بدء اعتقالهم حيث الغلاء والبطالة وندرة فرص العمل، وحيث التنافسية التي تفرض تأهيلاً لا يمتلكونه»(33).

اغتيال الأفكار وانتحار الأجساد: مأساة جيل أروى صالح (34)

ما حدث لجيل الجماعة الإسلامية المصرية تكرر بشكل مضاعف مع جيل اليسار الذي سبقه، فإننا إذا رجعنا قليلًا إلى الوراء في مصر، تحديدًا في حقبة الستينات، سنجد أن التيار اليساري في مصر حينذاك كان مستفحلًا ويوجد بكثافة في أوساط الطلبة والعمال ويتحرك في العديد من المسارات والفعاليات ويقيم الأنشطة ويسيطر على المشهد الثقافي والفكري والنضالي في مصر، لا سيما بعد تولي جمال عبد الناصر وجهه شطر الاتحاد السوفيتي الذي ضغط على ناصر من أجل تعزيز نفوذ اليساريين في المجتمع والدولة، والسينما والأدب، والتعليم والثقافة.

وفي ظل قمع التيارات الإسلامية وغياب أي مضمون إسلامي على الساحة

الشبابية وتفريغ وزارة الأوقاف والجامع الأزهر من مضمونهما النضالي والتكافلي ونزع أي شكل من أشكال الاستقلالية عنهما، لم يكن أحد من الشباب يفكر في أي شيء تقريبًا إلا ويجد الفكر اليساري الماركسي ماثلًا أمامه باعتباره طريقة التفكير الوحيدة ومنهجية التعلم الرشيدة وسبيل النضال الأوحد.

عبر هذا الإطار إذن كانت الجامعات مكتظة بالأنشطة اليسارية والنضال الطلابي الثقافي ضد الإمبريالية والفقر والرجعية، وبطبيعة الحال كانت أروى صالح ممن تفائلوا في السبعينات بانتصار الفكر اليساري في مصر على الرجعية، وظنت أن الشعب قد استفاق من حلم البرجوازية أخيرًا، وقد حان وقت التمكين اليساري الثوري في البلد، لا سيما مع انتفاضة الطلبة عام 1968م.

تصف أروى الشباب اليساري في ذلك الوقت وتفضيله للقيم الجماعية على حساب القيم الفردانية قائلة بأنه «على مدار السنين وضع نفسه تحت تهديد مخالب الشرطة التي لا ترحم، يعيشون حياة الملاحقين ويضحون بصنع مستقبل شخصي في الحياة العملية وأحياناً بمواهب واعدة في مجالات أخرى عن طيب خاطر، يحيون في ظروف معيشية مضنية تبلغ حدودًا دون المستوى الإنساني أحياناً».

لكن أجهض الحلم الاشتراكي بفعل صعود الإسلاميين وتفوقهم على الفكر اليساري، وذاق اليسار ويلات الهزيمة وتجرع مرارة الشعور بالاغتراب عن سائر أطياف المجتمع، فتلاشى الحلم اليساري الذي كان يلوح في الأفق ليسيطر مكانه المارد الإسلامي الذي يحارب اليسار بضراوة. وفوق ذلك عانت صالح من خيبات على عدة مستويات زادت من بؤسها ومن شعورها الحاد بالاغتراب واللانتماء.

في هذا السياق التاريخي تحكي صالح أن جيل الشباب اليساريين مثلها قد انقطع عنه الغيث، «ولم يشارك في نضال ذي أثر وله مغزى عام يقوده، استولى علينا الحيرة، وصرنا بقايا زمن لم نكد نتعرف عليه، لا ندري ماذا نفعل بعد أن ذهبت من تحت أقدامنا الأرض المتحركة للطلاب».

ثم ترسم لنا صالح الحالة النفسية للشباب حينذاك، وكيف أنهم عاشوا مغتربين عن

مجتمعهم، فاضطروا إما إلى التماهي معه وإما إلى الانسحاب إلى الحياة الخاصة، فتقول: «حين خرجنا للحياة أخيرًا، كان الحطام بالجملة، مثل مومياوات أخرجت للشمس فجأة فتهاوت ترابًا، وكان صعبًا على الكثيرين أن يبلغوا صلحًا مع أنفسهم بعد كل ما حدث، فالواقع الذي خرجوا إليه لم يكن أكثر رحمة، حتى لجأ البعض إلى أيسر الطرق لاستعادة توازنه، الارتداد».

وتضيف صالح مسترسلة عن ندم بعض الشباب في تضييع حياتهم في النضال الجماعي: «اكتشف البعض أن العداء للاستعمار كان أصل كل الكوارث، وأعلنوا بشجاعة انتهاء عصر الأحلام الكبرى وتدشين عهد الواقعية، حيث لا أحلام ولا هدف ولا موضوع للحياة سوى التملك، مصدر الأمن والأمان وجائزة السباق بين أفراد شعب لم يعد يجمعهم سوى صراع جهنمي من أجل البقاء».

ثم تنقل لنا أروى إلحاح الحاجة المادية وكيف أنها أرغمت الشباب على التخلي عن نضالهم الجماعي والانشغال بحياتهم الخاصة قائلة: «في وسط الانهيار العظيم لحلمنا، أخذ الجميع يبحث عن أرض مضمونة يسند إليها قدميه اللتين اتضح أنهما كانتا معلقتين في الهواء، وفي واقع انعدمت فيه كل أرضية مشتركة بين أفراد المجتمع بأسره، كان الهم الوحيد الحقيقي هو أن يؤمّن كل فرد نفسه ماديًا».

نفسية الإنسان المهزوم

بعد استعراض التجارب الأربعة آنفة الذكر: انسحاب شباب اليوم ما بعد الربيع العربي، وانشغال شباب الجماعة الإسلامية بمصر في 2000م بحياتهم الخاصة، وتمحور شباب أحداث حماة حول لقمة عيشهم، وندم الشباب اليساري بمصر على فناء أوقاتهم في النضال الجماعي، فإننا هنا نطرح على القارئ والقارئة الكريمين سؤالًا: ما هو المشترك بين كافة هذه التجارب؟

يمكننا استنباط عاملين مشتركين أساسيين من كافة هذه التجارب: الأول هو أن هناك ظاهرة ملحوظة عند الأجيال التي تمنى بالهزيمة حيث يرمي الشباب أحلامهم الكبرى إلى غياهب الماضي ويركزون في أحوالهم المعيشية الخاصة ومن

ثم يفقدون فاعليتهم التاريخية ربما للأبد، ونادرًا ما نرى من الشباب من يظل معتنقاً لأفكاره الجماعية ويتصرف إزائها.

هذا الأمر ذكرته أروى نفسها حيثِ ذكرت أنه «بقيت أقلية مصرة على النضال» كما لاحظه عمر عبد الحكيم أيضًا في سوريا حينما قال: «لم يبق في الرباط إلا بضعة عشرات يصارعون ظروفهم وبضعة عشرات يأملون في الإصلاح وآخرون معهم مضطرون للبقاء».

فالشاب الذي يعيش تجربة الهزيمة وتحطم أحلامه التي أنفق فيها شبابه من أجل تحقيقها، يجد نفسه مصابًا بالاغتراب ولا يشعر بالانتماء للمجتمع الذي يعيش فيه، ولا يعترف سوى بقيمه الخاصة التي ناضل من أجلها في الفترة الذهبية من عمره. وفي هذا الإطار يرى عالم الاجتماع السوري حليم بركات أن الإنسان المغترب «قد يقبل بالوضع مضطرًا ويعايشه، ولكنه قد لا يقوى على تحمّله فيبحث عن مخرج بسبل مختلفة»(35).

وأمام هذا المأزق النفسي يطرح بركات ثلاثة مسارات سلوكية يسلكها الشاب إذا وجد نفسه محاصرًا بحالة الاغتراب: إمّا الانسحاب واللا مواجهة والانعزال عن الأنشطة العامة في مقابل الانغماس في الأنشطة الخاصة والشأن الذاتي، وربما في هذه الحالة تشكل الهجرة خارج البلاد أفضل الحلول الممكنة بالنسبة لهذا الخيار، وفي الخارج ينغمس الإنسان في نشاطات التسلية والإلهاء التي تنسي المغترب معاناته وتفصله عما يحدث في موطنه الأول(36).

أمّا الخيار الثاني «طبقاً لبركات - فهو الرضوخ والاستسلام للأمر الواقع والتكيف معه ظاهريًا على الأقل، وهو ما يُعد «خيار آخر كثيرًا ما يلجأ إليه المغتربون بفعل اليأس والضعف، وقد تنتهي مسوغات التكيف مع الواقع، كالتملق والمجاملة والتحبب والتقية والتسويغ والتناول والمساومة، إلى الانسجام مع الواقع»(37).

وأخيرًا فإن الخيار الثالث فيقوم على التمرّد ومواجهة الواقع سواء عبر العمل

الثوري لتغيير النظام أو عبر المشاركة في الأنشطة والحركات التي تهتم بإصلاح المجتمع، وهي في موضوعنا هذا القلة القليلة من الشباب التي بقيت مستمسكة بالعمل الجماعي والقيم العامة التي تسعى إلى تطبيقها.

وعلى صعيد مماثل يؤكد مصطفى حجازي، أستاذ علم النفس بجامعة لبنان، أن الإنسان المقهور تتغير حالته النفسية وسلوكياته تبعًا للقهر المفروض عليه، قائلًا: «الحركة الأولى التي يحاول الإنسان المقهور من خلالها تجنب ما يفرضه المتسلط من قهر متعنت تأخذ اتجاه (الانكفاء على الذات)».

ويضيف حجازي: «وتشيع هذه الآلية الدفاعية أمام حالات الفشل، فالإنسان يتجه إلى التقوقع والانسحاب بدلًا من المواجهة والتحدي. في حالات الفشل، يدير الإنسان ظهره إلى العالم ويقطع الصلة بموضوعات هذا الفشل كي لا تثير في نفسه قلق الخواء وما يجره من إحساس بانعدام القيمة»(38).

يبدو إذن أن الانسحاب من الشأن العام والتركيز على الشأن الخاص، أو التحول من الجماعية إلى الفردانية، هو رد فعل نفسي تجاه فشل التغيير المجتمعي في حياة الشاب، فهل تستغل الأنظمة هذه النفسية المنكسرة وتتعمد تحفيز رد الفعل الانسحابي هذا عند مواطنيها؟

الفردانية مذهب الطغاة

يروى في الأثر أن الخليفة العباسي المأمون سأل النضر بن شميل عن الإرجاء فقال له: «هو دين الملوك» فقال المأمون: «صدقت»(39). فما معنى الإرجاء وما معنى أنه دين الملوك؟!

الإرجاء في اللغة يعني التأخير، وفي الاصطلاح هو تأخير العمل عن الإيمان، وبدون الدخول في تفاصيل معقدة يكفينا في هذا السياق أن نعرف أن فرقة المرجئة كانوا يرون أنه لا يضر الإيمان أي معصية، أي أنه مهما فعل الإنسان من ذنوب أو جرائم فهو مؤمن مكتمل الإيمان(40).

وبالطبع لم يجد الملوك والمستبدين أنفع من هذا المذهب ليقربوهم إليهم، لأنه مهما فعل هؤلاء الحكام ومهما تجبروا وعاثوا في الأرض فسادًا، فإن مشايخ المرجئة سيخرجون ليعلنوا للناس أن هذا الملك مسلم كامل الإيمان مهما فعل وطغى وتجبر، وبالتالي تخمد عزيمة الناس وتفتر رغبتهم في معارضة هذا الملك.

ومن المفارقات التي ينبغي علينا ملاحظتها هو أن الإرجاء بدأ في الانتشار في الأمة الإسلامية عندما هُزمت ثورة ابن الأشعث عام 83هـ، وهو ما قرره التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي حينما قال: «إنما حدث هذا الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث»(41). وابن الأشعث هو أحد الولاة الذين قاموا وانتفضوا ضد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كانت مظالمه تملأ البلاد، وانضم إليه خلق كثير ووقع بينه وبين الحجاج مناوشات وحروب امتدت لحوالي ثلاث سنوات.

فاتجاه الناس إلى الإرجاء إذن يوضح طبيعة ردة الفعل النفسية تجاه الهزيمة، وأن الانسحاب من المشهد السياسي هو أمر يحصل في العادة تحت الضغط والقمع، كما حدث في التجارب التي عرضناها.

فإذا كان الإرجاء هو دين الملوك، فإن الفردانية هي مذهب الطغاة.

وسبب ذلك يتلخص في أن هذا هو العامل الثاني المشترك بين كافة التجارب التي ذكرناها، فنزوع الشباب إلى الفردانية يحصل عادةً بسبب قمع الأنظمة لحركات التغيير وإجهاضهم لتيارات الإصلاح وليس بسبب تفكر الشباب الحر في موقفهم من الحياة والشأن العام.

بمعنى أن السلوك الفرداني الذي يتخذه الشاب العربي في العادة يجري تحت تهديد الحديد والنار، وليس نابعًا من قرار ذاتي مستقل عن العوامل الخارجية ومنبثق من إرادة الشاب الحرة بكامل اختياره الواعي، فهو قرار يحصل تحت ضغط الاستبداد ووطأة الظروف المعيشية الصعبة التي تفرضها حالة الظلم الاجتماعي والفساد والحصار الاقتصادي التي تحكم بها الأنظمة الحاكمة قضبتها على الشعوب.

ومن هذا المنطلق فلا يستقيم أن نحاصر شابًا في مادياته ومعيشته وحياته الأسرية، وننتزع عنه كل حقوقه السياسية والاقتصادية ونغلق عليه جميع أبواب الأمل في تغيير المجتمع، ثم نحاكمه لما يصدر عنه من سلوكيات قائلين بأنه هذا هو اختياره الشخصي دون الالتفات للمسبب الحقيقي وراء تعبئة الشباب نحو هذا المنحى.

نعم هناك جزء من المسؤولية تقع على الشاب بصفته محاسبًا على أفعاله ومسؤولًا عن تصرفاته بالطبع، لكن لا ينبغي أبدًا أن نهمل مَن حاصره في هذا الموضع ابتداءً، لذا فإننا هنا سنستحضر القاعدة التي أوردناها في الفصل الأول التي تقول إن تناول ظاهرة الفردانية لا بد أن يحصل في إطار المعركة الدائرة بين الإسلام والغرب، فهل هناك مثال واضح يمكننا التمثيل به في هذا الموضع؟

الفردانية كتفريغ للمقاومة

من أبرز تجليات فكرة أن الفردانية هو مذهب الطغاة الذي يفرّغ حركات المقاومة من مضمونها، ويبتلع القيم الجماعية مثل العدل والمساواة والحرية، يمكننا النظر إلى ما وصى به الباحث الصهيوني بنجامين أكوستا بأهمية استباق الأعمال الاستشهادية «الإرهابية» التي تحدث في الدولة الصهيونية وعدم التنازل مطلقاً أمام المنظمات التي ترعى هذه الأعمال، مع السعي لتجفيف البحر الذي تعيش فيه هذه المنظمات، عبر - وفقاً للباحث - تشجيع النوازع الفردانية عند الشعب الفلسطيني.

وفي ذلك يقول أكوستا: «مع شيوع الاعتقاد القائل بعداوة الدولة الصهيونية في فلسطين، فإن الجهاد الفلسطيني سيستمر في الوجود طالما لم يكن للفلسطينيين فرصة للاندماج في مجتمع حداثي يقوم على الفردانية، وينزع ارتباط الفلسطيني بأي أيدولوجية استشهادية»(42).

وقد نجحت السياسة الصهيونية إلى حد ما في تفريغ فلسطين من أي مشروع كفاحي بشكل كبير، واستطاعت أن تؤسس لأجندة أولويات ونمط حياة يعزل الفلسطيني عن ظرف الاحتلال ومسؤوليات العقيدة والجماعة ويحصره في إطار

تأمين الحياة الشخصية فحسب.

ومع توالي الضربات وجد الشعب الفلسطيني نفسه وقد عانى ويلات الحروب والحصار والقصف والاعتقال وتكبد ثمناً غاليًا -وحده وما زال- لدفاعه عن عقيدته وأرضه، لكن ثمة أجيال بدأت تتململ من طول فترة الحرب، وبدأوا في الالتفات إلى حياتهم الخاصة دون الانشغال بأي قضية جماعية.

وهذا الحال ليس وليد اليوم في 2021م، فقد نسجت رواية (رجال في الشمس) للروائي الفلسطيني اللاجئ غسان كنفاني خيوط هذه الظاهرة الفردانية عام 1963م، حيث صور كنفاني فيها نماذج لشباب وأسر فلسطينية تكبدت مشقة المقاومة حتى هزيمة 1948م ثم لم تعد تتحمل مشاق الحياة وصعوبة المعيشة، فصارت كل أسرة تبحث عما يؤمن معيشتها فحسب.

وفي الرواية وصف كنفاني حال الشباب الفلسطيني الذي يحاول الهروب من فلسطين لجني الأموال بأي شكل ولو في المنفى، ولو على حساب التهريب غير الشرعي عبر الحدود. إنها حكاية ثلاثة فلسطينيين من أجيال مختلفة، يلتقون حول ضرورة إيجاد حل فردي لمشكلة الإنسان الفلسطيني، بعيدًا عن سرديات المقاومة والجهاد والمعركة والانتماءات التنظيمية الواسعة، فقد تخلى الجميع عن الأرض ليبحثوا عن خلاصهم الخاص(43).

ويشرح آدم هنية، الأستاذ بجامعة لندن، طبيعة هذا التحول من الجماعية إلى الفردانية عند الشباب الفلسطيني فيقول: «كانت الظروف الاقتصادية الصعبة وأنماط الاستهلاك الفردانية الجديدة تنعكس على المشهد الجغرافي لبلدات الضفة الغربية، فقد ظهرت إعلانات الشقق السكنية الجديدة وقروض السيارات وهي الإعلانات التي حلت محل الجرافيتي السياسي المقاوم الذي احتل المشهد على مدار العقد السابق على تلك المرحلة».

ثم يستكمل هنية: «تأثرت قدرة الناس على النضال الاجتماعي وعلاقاتهم بالمجتمع، فقد تم تلقين الناس كيفية إرضاء احتياجاتهم الخاصة عن طريق السوق

والاقتراض بدلًا من إرضاء الاحتياجات العامة عن طريق النضال الجماعي. وأدت هذه العلاقات المالية إلى فردنة طبيعة المجتمع الفلسطيني، وتحول أغلب السكان إلى الاهتمام أكثر بالاستقرار وبالقدرة على سداد الديون بدلًا من النظر إلى احتمالات وإمكانات المقاومة الشعبية»(44).

هذا الفصل إذن تناول بعض التجارب المشابهة التي انطلقت من نقطة إرادة التغيير والأمل بالمستقبل، وخاضت نضالًا واسعًا ضحت فيه بأوقاتها وأفنت فيه أعمارها ولم تجن شيئاً ملموسًا من وراء ذلك، فالتفت الجميع إلى حياته الخاصة تحت وطأة الاستبداد والظروف الاقتصادية الصعبة، وإن كنا قد عرضنا التجارب بشكل موجز في الصفحات السابقة، ففي الفصل القادم سنخوض رحلة مع اثنين ممن خاضوا هذه التجربة بشكل تفصيلي في الفصل القادم، لنتقرب إلى هذه الحالات بشكل أعمق ونقدر على مقارنتها بأنفسنا والاستفادة من تجربتها والبناء عليها.

الفصل الثالث:

حكاية «جيري» من النضال إلى التنمية البشرية

«نمونا كان أكثر تعددية لكن أقل وحدة، أكثر ديناميكية ولكن أقل أماناً».

يوفال ليفين، باحث أمريكي(45)

من أجل فهم أعمق لما يصيبنا في العالم العربي حاليًا من تفضيل للقيم الشخصية على القيم الجماعية، سنتناول في هذا الفصل التيار اليساري الأمريكي في السبعينات، الذين تبنوا رؤية اشتراكية ثورية مخالفة للتوجه الرأسمالي للدولة الأمريكية، وعارضوا النظام الحاكم في أمريكا، وناضلوا في الحركات الطلابية والعمالية، ثم عانوا من الهزيمة وقمعت الحكومة تمردهم والتهمت الشركات الرأسمالية وحدتهم، فتفككت معارضتهم وتغلب النظام الرأسمالي على حركتهم، فانسحب الجيل إلى الفردانية، وانشغل كل شاب بحياته الخاصة، وصارت الرياضة والتنمية البشرية والصحة النفسية والذهنية هي شعارات الشباب الجديدة، بدلًا من الثورة والتمرد وإسقاط النظام القديمة.

ولنتخيل معًا أننا نخوض رحلة مع طفل وُلد عام 1938م في أمريكا، وسنسمي هذا الطفل: (جيري) ونرى سويًا كيف كانت مراحل نمو فكره، ونتعرف كيف اعتنق في فترة من الفترات سردية جماعية كبرى، وكيف كان يناضل من أجل حقوق جماعية، ثم كيف نال الهزيمة وكيف انسحب إلى التنمية الذاتية والصحة النفسية عوضًا عن الكفاح الطلابي والسياسي.

في البدء كانت الثقافة المضادة

في أربعينات وخمسينات القرن الماضي، تربى جيري في ظل ازدهار ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتفاؤل الناس بمستقبل سالم وآمن لجميع البشر، كان الطريق سهلًا بالنسبة إليه، لا مشاكل عالمية، لا قضايا اجتماعية، لا نضال، إنه عالم يسوده

الرخاء والحب والسلام. ويحافظ فيه الجميع على الانتماء للجماعة، ويثقون في المؤسسات والتنظيمات والدول التي انتشلت العالم من كارثة الحرب العالمية.

هذا الأمر يرسمه لنا المخرج البريطاني الموهوب آدم كورتيس، في فيلمه الوثائقي المعنون بـ(قرن الذات) الذي أنتجته شبكة BBC العالمية، حيث يصور كورتيس طبيعة المبدأ الجماعي في المجتمع الأمريكي حينذاك، قائلًا بأن المجتمع الأمريكي كان مجتمعًا محافظًا أبويًا يعظم مفهوم الأسرة ويوزع أدوار الأفراد طبقاً لطبيعة مهامهم في البيت العائلي التقليدي، ولم يكن الاستهلاك الشخصي ولا المتعة الفردية متاحين بوفرة لعموم المواطنين، وإنما كانت أمور مقتصرة على الطبقات الاجتماعية العليا الثرية.

ترعرع جيري إذن في هذا الجو الهادئ المستبشر خيرًا، ومرت مرحلة طفولته بسلام، ثم بدأ جيري في النضج، وتوسعت آفاقه وقراءاته، ليدرك في لحظة ما حقيقة العالم الذي يعيش فيه، لقد اكتشف جيري أنه تعرض للخداع، وأن الأمل زائف.

فالسلام الموعود لم يكن إلا وهمًا كاذباً، وصورة العالم الوردي لم تكن إلا قناعًا يخفي الحقيقة، فقد تورطت أمريكا في حرب فيتنام ومات العديد من الأبرياء في حرب غير متكافئة عسكريًا ولا اقتصاديًا، وبات التهديد بالحرب النووية وشيكًا في العالم في ظل التنافس بين السوفيت والأمريكان خلال الحرب الباردة، وتوحش النظام الرأسمالي على حساب العمال والضعفاء، وازدادت الفجوة الطبقية بين الأغنياء والفقراء بشكل مطرد، كما بدت فرص التعليم والترقي المهني تتقلص مع مرور الزمن.

احتار جيري: ماذا يفعل إزاء هذا الظلم الاجتماعي؟ هل سينحاز إلى مقاومة هذه السلطة الرأسمالية أم أنه سيفضل الانسحاب؟ وجد جيري ضالته في جيرانه الأوروبيين الذين كانوا ناشطين للغاية ومكتظين بالحركات الاجتماعية المناهضة للحرب والمنادية بالمساواة والحقوق الاجتماعية العادلة للجميع وكبح جماح الجشع الرأسمالي المتزايد، آمن جيري بأفكار هذا الحراك الراديكالي في الولايات المتحدة،

وتمنى لو ينضم إليه في يوم من الأيام.

تغيرت وجهة نظر جيري في العالم، فبدلًا من رؤيته لعالم سالم وآمن، اعتقد أن العالم الرأسمالي الغربي قد زخر بمشاكل متعلقة بالنظام بدت وكأنها تنتظر من يحلها، ومع انضمام جيري عام 1955م إلى الجامعة، ووسط هذه الأزمات الكارثية، وجد أن زملاءه من الطلاب الناشطين قد اتخذوا موقفاً رافضاً للنظام وبدأوا يعبرون عن أنفسهم وأفكارهم المناهضة للنظام فيما سمي بعد ذلك بـ«الثقافة المضادة Counter Culture». فتساءل جيري: لماذا لا أسهم مع هؤلاء في تغيير العالم إلى الأفضل؟!

وعلى الفور أصبح جيري منذ الخمسينات واحدًا من أعضاء ورموز الثقافة المضادة التي وجد فيها ضالته المنشودة، فقد تميزت هذه الحركة بتوجهها المخالف للقيم المحافظة السائدة في المجتمع ورفضها لكافة الأشكال السلطوية ودعوتها إلى تحرير الفرد من أية قيود ليبرالية، دينية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

وعبرت الثقافة المضادة في الولايات المتحدة عن نفسها من خلال حركات مثل حركات جيل البيت Beat Generation والهيبيز Hippies والبوهيمينز Bohemians، واليسار الجديد، وغيرها من الحركات والتنظيمات.

وأقترح على القارئ أو القارئة الكريمين أن يأخذا جولة سريعة في عالم هذه الحركات عبر البحث في محرك جوجل، ليتضح لديه صورة ذهنية عن ماهية هذه الحركات؛ إذ لم تكن حركات معارضة فحسب بل مثلت نمط حياة متكامل يندمج فيه المرء بكل كيانه.

لقد وصفت الصحفية ميلدريد برادي هذه الحركات التي كان جيري عضوًا فيها بقولها: «هؤلاء الشباب مختلفون، يعيشون في غرف غير مفروشة وينقشون رسومات تجريدية على الحوائط.. ويمزجون بين الأناركية والتحليل النفسي لتشكيل فلسفتهم الخاصة، فلكي تكون واحدًا منهم يجب أن تتخلى عن الكنيسة والدولة والأسرة، وفي المقابل يصبح الجنس بالنسبة لك مصدر الخلاص الفردي من العالم الذي يتجه إلى

الجحيم»(46).

وجد جيري نفسه إذن خلال عقدي الخمسينات والستينات في خضم حركة معارضة يسارية تنادي بالثورة على النظم الرأسمالية، ونشأ جيل كامل على معارضة النظام في الجامعات والحركة الطلابية، في الاحتجاجات العمالية، في الإضرابات والنقابات، في كل مساحة عمل عام كان العمل اليساري الراديكالي المنادي بالثورة لتغيير النظام بالكلية مفعمًا بالحيوية، مجتمعات الثقافة المضادة كانت تعارض الحرب، وتناضل من أجل حقوق الإنسان وحقوق المرأة، وتحارب السياسات النووية للدول، وتمتلئ بها الجماعات والحركات الاجتماعية في أوروبا وأمريكا.

لقد تشبع جيل الشباب حينذاك بالحيوية، مظاهرات وفاعليات، مؤتمرات ومنشورات، حركات واحتجاجات، اعتصامات وإضرابات، اجتماعات ومناقشات. كل ما يدور في ذهنك من معاني النشاط السياسي ولوازم الحركة الاجتماعية، كان لجيل الستينات الريادة فيه. فما الذي تغير ومثّل نقطة التحول لجيل كامل نقلته من الجماعية إلى الفردانية؟!

الهزيمة أمام الواقعية

هل مازلت تتابع معي قصة جيري؟ جيد، لكن دعني أخبرك أن قصته لم تكن من نسج خيالي وإنما هي حكاية حقيقية لواحد من هؤلاء الذين ضاعوا في صحراء الإحباطات لهذا الجيل، إنه جيري روبين، الناشط الراديكالي المتحمس الذي كان يقود المظاهرات والاحتجاجات السياسية ومتصدرًا الصفحات الأولى من الجرائد(47)، إلى حد أن البعض أطلق عليه (أيقونة الثقافة المضادة)(48).

عانى جيري من خيبات متتالية، وانهزمت حركة اليسار، وأفل نجم المعارضة، وازداد توحش الرأسماليين وسيطرتهم على العالم، وتصاعدت حدة الحرب والتدخلات العسكرية الأمريكية في دول العالم، ولم يستطع اليساريون تقليل الفجوة الطبقية، أو توقيف التصعيد النووي، أو ردع الرأسماليين عن التهام الفقراء، قُمعت

الحركة وفشلت الثورات، وانطفأ نور الأمل الذي كان يراه روبين وجيله.

وجد روبين جيري بعد انسداد آفاق التغيير وتقهقر اليسار وفشل النموذج السوفيتي، محاطًا بالقلق والخوفِ من المستقبل، لقد تجاهل لسنوات عديدة حاجياته الذاتية وصحته الذهنية والنفسية والجسدية وحياته الشخصية، وطفق يبحث عن المعنى في حياته للخلاص من حالة التيه التي يعيشها. ماذا يفعل؟ أين يجد الراحة؟

هنا يشير كريستوفر لاش، أستاذ التاريخ بجامعة روتشيستر الأمريكية، إلى أن المواطن الأمريكي - جيري واحد منهم - خلال عقد الستينات وجد نفسه في عصر أصابه وباء القلق والاكتئاب والخوف من المستقبل والفراغ الداخلي، «لم يعد مواطن القرن العشرين الأمريكي يبحث عن رجال الدين أو الكهان، وإنما يسعى الآن وراء المعالجين والأطباء النفسيين. توارى الهدف الديني القديم المتمثل في الخلاص من الذنوب وأصبح الهدف الأسمى حاليًا للفرد هو السواء النفسي والسعادة الفردية»(49).

هل يمكن تطبيق اقتباس لاش السابق علينا في العالم العربي في 2021م؟ ربما.

على أي حال فمنذ ذلك الوقت، وخلال أربعة أعوام فقط، خاض جيري تحولًا جذريًا في أفكاره، لقد انضم لبرامج تدريبية تدور حول «الطاقة الحيوية، والمساج، والركض، والطعام الصحي، ومركز Esalen التنموي، التنويم المغناطيسي، الرقص الحديث، التحكم في العقل، العلاج الجنسي، والوعي بالذات، والجشطالت Gestalt therapy»(50).

فك روبين ارتباطه بالنشاط الجمعي تمامًا واتجه إلى النشاط الفردي البحت، وحكى عن تجربته في برنامج est التدريبي في كتابه المعنون بـ(النضج في سن الثالثة والسبعين) قائلًا: «كان هناك أمر ثوري يحدث في est، في الستينات كنت أستخدم المجال السياسي لأجعل الناس يتجاوزون أدوارهم الشخصية، أما الآن

فهذا البرنامج يحثني على مواجهة نفسي. عندما يكتشف الناس أنفسهم، ينضجون ويكبرون، وهذا أمر ثوري بحق»(51).

طلّق روبين النشاط السياسي إذن ووجه كل طاقته نحو اكتشاف نفسه، وبعدما كان يمقت الرأسمالية ويحاربها بكل ما أوتي من قوة، تحول موقفه منها بشكل انقلابي، فبعدما كان يرى أن تراكم الثروة هو العائق الأساسي أمام اللا مساواة الاجتماعية، صرح روبين نفسه في السبعينات قائلًا: «إن خلق الثروة هو الثورة الأمريكية الحقيقية، ما نحتاجه هو تدفق رأس المال إلى المناطق المحيطة في أمريكا»(52).

هذا التحول لروبين كان نموذجًا في تصوير طبيعة التحولات في تلك الفترة، فمع قدوم السبعينات، وفقاً لكامبل، «تلاشت الأهداف الجماعية جميعها، ولم تتبقَ إلا الأهداف الفردية»، أو بتعبير كارل سيدرستروم، الأستاذ المساعد بجامعة ستوكهولم: «صار تحقيق الذات طريقاً لدخل أكبر وفرص وظيفية جديدة»(53).

لم يستطع الراديكاليون واليساريون، الذين كانوا يحلمون منذ عشر سنوات أن يغيروا أمريكا عبر الثورة، أن يفعلوا شيئاً يذكر لتغيير النظام، فانسحبوا وعاشوا في حياتهم الخاصة. تصف المغنية باتي سميث خيبة الأمل التي خيمت عليها قائلة: «لم يعد بمقدوري الشعور بالانتماء إلى أي حركة سياسية، تلك الحركات المجنونة التي ملأت الشارع، فعند محاولتي الانضمام لأي منها، كنت أشعر بوطأة بيروقراطية من نوع آخر»(54).

ويعلق آدم كرتيس قائلًا: «كانت كلماتها بمثابة تعبير عن بزوغ نزعة فردانية جديدة لا تتوائم مع فكرة العمل السياسي الجمعي.. عوضاً عن ذلك، باتي سميث وغيرها كثر صاروا نوعًا جديدًا من الراديكاليين الفرديين، الذين اكتفوا بمراقبة المدينة المنهارة بلا مبالاة باردة، لم يحاولوا تغيير شيء واكتفوا بمعايشة الوضع»(55).

لجأ الراديكاليون في أمريكا إلى الفن والموسيقى كوسائل بديلة للتعبير عن انتقاد للمجتمع، اعتقدوا أنه بدلًا من محاولة التغيير الخارجي، فعلى الراديكالية الجديدة السعي لتغيير ما بداخل أدمغة الناس، وذلك عبر التعبير الذاتي لا العمل الجمعي.. وعلى صعيد آخر أدرك بعض اليساريين أن هناك حالة قائمة أخرى تسود وأنهم بفصل أنفسهم والاكتفاء بعدم الاكتراث والتهكم، بدأ جيل جديد بأمله يفقد الإحساس بالمعنى الحقيقي للسلطة، كتب أحد معاصريهم: «كان هذا هو مزاج الحقبة، أما الثورة فقد أجّلت إلى أجل غير معلوم، وبينما كنا نغط في نومنا، ركب المال السلطة»(56).

بدأ عقد الثمانينات إذن في إطار هذه الثقافة الجديدة، تخلى الناس عن أحلامهم الكبرى وأدوارهم الاجتماعية، وانحصرت الهوية في دوائر شخصية فحسب، بلا أي انتماءات اجتماعية أو سياسية. لم يكن روبين استثناءً، فهل كان يشاطره في هذا التحول كثيرون أم أنه كان حالة خاصة؟

نقدم لكم: جين فوندا

هل تتابع برامج رياضية لتحسين قوامك الجسدي؟

إذا كانت الإجابة بنعم فلماذا لا نتعرف على أشهر من ابتدع هذا اللون من البرامج؟ ربما لم تكن الأولى لكنها كانت الأشهر على الإطلاق.

إن الأمريكية جين فوندا كانت تلقب بـ«ملكة التمارين الرياضية»، ومثلت بالفعل حالة استثنائية في تاريخ شرائط الفيديو VHS. فقد سجلت فوندا أولى شرائطها عام 1982م كمدربة للتمارين الرياضية، باعتبارها من أوائل النساء اللاتي اتجهن إلى هذا النوع من التنمية الذاتية.

وفجأة وبدون سابق توقع، سجلت فوندا رقمًا قياسيًا في مبيعات شرائطها بطريقة أذهلت فوندا نفسها، إذ بلغت مبيعات شرائطها 17 مليون شريط على مستوى العالم، بل كان برنامجها أحد الروافد الرئيسية التي شكلت برنامج Zumba الرياضي

الشهير حاليًا(57).

كانت فوندا ممثلة متوسطة الشهرة طيلة فترة شبابها، لكن بعد هذا النجاح الجماهيري الضخم، استثمرت صعودها في تكثيف دورها السينمائي، وتحولت في غضون سنوات قليلة إلى نجمة بارزة في عالم هوليوود، وعلاوة على ذلك فقد حصدت لاحقًا العديد من الجوائز المرموقة في المجال السينمائي مثل Golden Globe و Academy Awards، ولا تزال مستمرة في مشوارها السينمائي حتى الآن.

لكن هذه الصورة الناجحة للممثلة جين فوندا التي نعرفها الآن، أو تلك الصورة التي عرفها جيل الثمانينات كمدربة للياقة البدنية أو ممثلة على الشاشة الأمريكية، لم تكن هي نفسها جين فوندا الشابة، بل تكاد تكون شخصية أخرى بالكلية. فقد وُلدت فوندا عام 1937م، وفي أول عقدين من عمرها مارست حياتها بشكل طبيعي جدًا، ثم اتجهت إلى النشاط السياسي عام 1968م، وشاركت في العديد من المظاهرات المنادية بإنهاء الحرب، وبقضايا حقوقية عرقية ونسوية وعالمية.

وشيئاً فشيئاً تطورت أفكارها وتصاعدت لهجتها المعارضة حتى باتت تصف نفسها بالراديكالية، مطلقة وصف «مجرمي حرب» على رجال السياسة، ومطالبة بتغيير النظام السياسي برمته، وتسافر إلى بقاع شتى في الأرض لمناهضة الآلة الرأسمالية الغربية(58).

في هذا السياق يؤكد ويليام كامبل أنه في هذه الفترة الصاخبة تمحورت قيم المجتمع حول أهداف جماعية في الغالب، مثل الحفاظ على الأسرة الممتدة، والتحرر من العنصرية، والنضال النسوي الحقوقي، والكفاح العمالي والطلابي ضد طبقة الأغنياء، وغير ذلك من أهداف تخص طبقات وشعوب بأكملها لا فرد واحد بعينه(59).

ويمكننا أن نرى الفارق بين تلك المرحلة الجماعية والمرحلة الفردانية التي

أعقبتها، إذا نظرنا إلى صورة جين فوندا التي التقطتها لنفسها ونشرتها عام 1972م أثناء زيارتها العاصمة الفيتنامية هانوي، وهي جالسة على إحدى الأسلحة المضادة للطيران، كرمز لتوضيح موقفها في مناهضة الحرب الأمريكية على الشعب الفيتنامي. ظلت فوندا فخورة بالصورة طيلة فترة العمل الجماعي، لكن بعد تحولاتها الفكرية إلى الفردانية، قدمت اعتذارًا عام 1988م عنها وتراجعت عن نشرها(60).

وتمامًا كسلفها جيري روبين من قبلها، رسمت حالة فوندا نموذجًا للتحول الذي أصاب الشباب والمواطنين في الولايات المتحدة خلال عقد السبعينات، فقد تخلى الجميع عن أحلامهم بعالم أفضل وهجروا أفكارهم حول السياسة والحرب والنظام ولم يتمسكوا إلا بأهدافهم الشخصية وتحقيق ذواتهم الداخلية فحسب، مع بعض النشاط الحقوقي «اللمم» هنا وهناك، أو بتعبير آدم كورتيس: «تخلت جين فوندا عن الثورة الاشتراكية، وبدأت ثورتها الخاصة.. فتغيير العالم كان أمرًا معقدًا جدًا، ولكن هناك أمر واحد يمكنك السيطرة عليه: جسمك»(61).

أنت بلا حدود!

من رحم اليأس، والإحباط، وانسداد الآفاق، وإلحاح متطلبات المعيشة، وُلدت الأجيال الجديدة، فانتقلوا تحت وطأة هذه الظروف نقلة نوعية من الانتماء الجماعي إلى الحياة الفردانية الخالصة.

بدأ الشباب الأمريكي في النأي بعيدًا عن السياسة، بسبب شعور عميق داخلهم بأنه لا جدوى لقول أو فعل مهما حاولوا، فبالرغم من الاحتجاجات الحاشدة والمخاوف والتحذيرات، فقد اندلعت الحروب على أي حال، واستمر النظام الرأسمالي في التوحش مهما فعلوا.

آثر الليبراليون والراديكاليون وجيل الشباب بأكمله إذن الانسحاب والتراجع، ولاذوا بعالم آخر بديل غير ملوث بكل هذا النفاق والفساد السياسي. قرروا اللجوء إلى الفضاء الإلكتروني يبثون فيه همومهم ويصنعون فقاعة يعيشون داخلها منعزلين

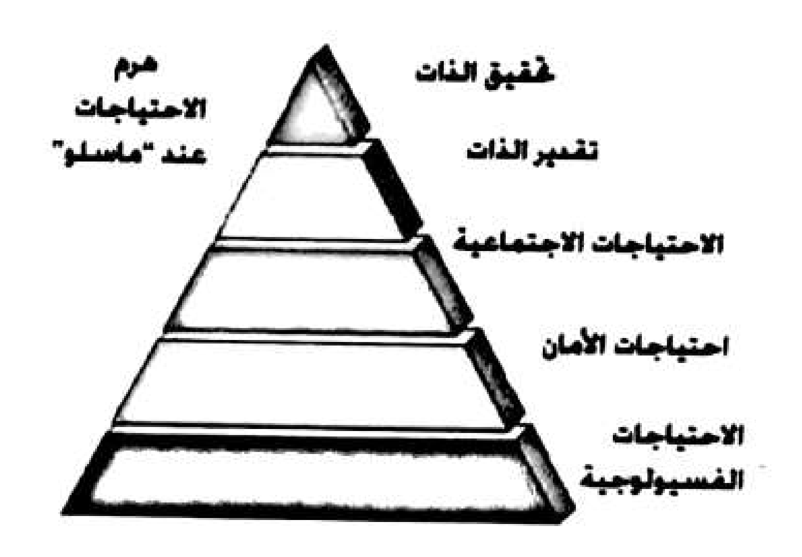
عن أحداث العالم.

لكن قبل ذيوع الفضاء الإلكتروني، كانت الحركة التي أحدثت انقلابًا حقيقيًا في الانطلاق نحو الفردانية، وتشكيل عقلية العالم الجديد القائمة حتى اليوم، هي حركة الإمكانات البشرية Human Potential Movement، التي ستؤدي إلى ذيوع مفهوم (تحقيق الذات) و(التنمية البشرية) وصياغته في الأدبيات ووسائل الإعلام حتى يصل إلينا كما نفهمه الآن، فما هي هذه الحركة وما امتداداتها داخل وخارج المجتمع الأمريكي؟ وكيف شكلت مفهومنا عن الذات القائم حتى اللحظة؟

نادت حركة الإمكانات البشرية بالتحرر الجنسي والذاتية الأصيلة Authentic selfhood. وظلت تنادي دومًا: دعك أيها الإنسان من كل ما يتعلق بالاشتراكية، ونفض عنك غبار الأفكار البالية المتعلقة بالثورة على الرأسمالية، واهجر رغبتك في تغيير النظام، فهذه الأشياء ليست (أنت) على الحقيقة، أنت شيء آخر تمامًا، ولكي تكتشف نفسك عليك أن تبحث داخل كوامنك وتخوض عدة برامج تدريبية، حتى تحقق ذاتك بأفضل شكل ممكن.

ركزت الحركة إذن من خلال هذه الشعارات على النظر إلى دواخل أنفسنا وتحسين قدراتنا الشخصية، ولم تأتِ هذه الحركة بلا دعم أكاديمي بل استقت أفكارها من عدد من المفكرين مثل ألدوس هكسلي وأبراهام ماسلو.

وكان لماسلو على وجه التحديد نصيب الأسد في تشكيل أفكار الحركة، فقد صاغ نظريته لهرم الاحتياجات البشرية التي تبدأ من الاحتياجات الفسيولوجية مثل الطعام والشراب والجنس، وتمر عبر عدة مراحل مثل الاحتياج إلى الاجتماع والعاطفة والاحتياج إلى الأمان والسلامة، إلى أن تنتهي بآخر خطوة من خطوات الاحتياجات البشرية وهي تحقيق الذات.



وفي هذا الإطار الساعي بكل ما أوتي من قوة نحو تقديس الذات، ظهرت عدة برامج ومؤسسات تساعد الأشخاص على الوصول النهائي إلى الإمكانات التامة للفرد، مثل مركز Esalen الذي يتضمن مجموعة مكثفة من ورش العمل والبرامج التدريبية الخاصة بالصحة النفسية وتشبيك العقل والجسم والتأمل والفلسفة الشرقية، ويبلغ عدد المنضمين سنويًا إلى المركز حوالي 12000 فرد جديد(62).

أما برنامج est الذي قاده Werner Erhard فقد شارك فيه أكثر من 700000 مواطن أمريكي(63)، وينصب تركيز البرنامج على تخلية الذات أي شوائب متعلقة بالظروف الاجتماعية أو القيود الدينية من أجل تحقيق الذات بشكل خالص.

عصر النرجسية

في عام 1898م سك الكاتب الإنجليزي هافيلوك إليس مصطلح (النرجسية) وعنى به إثارة الإنسان لنفسه جنسيًا عن طريق حبه لنفسه، وبعده بعشرين سنة، أكد عالم النفس النمساوي سيجموند فرويد على نفس المعنى. ظلت النرجسية إذن منذ بواكير القرن العشرين مصطلحًا طبيًا خالصًا، يستخدمه الأطباء النفسيون لوصف الحالات المرضية التي تحب ذاتها لدرجة المرض.

لكن منذ السبعينات فصاعدًا، بدأ الصحفيون والنقاد الاجتماعيون في التركيز على مفهوم النرجسية، لا بوصفه حالة مرضية وإنما بوصفه ثقافة عامة تجتاح المجتمع

الأمريكي. يخبرنا كارل سيدرستروم أنه مع ارتفاع مستويات الدخل وانتشار حركات الثقافة المضادة، لم يجد المواطنون سبيلًا أفضل لإنفاق أوقاتهم وأموالهم «من الإنفاق على متعتهم وراحتهم المادية والنفسية الشخصية، والسعي من أجل اكتشاف أنفسهم وتحقيق ذاتهم الداخلية»(64).

تسبب هذا التطور الاقتصادي إذن في نقل فكرة التحرر من المؤسسات وتحقيق الذات من مجتمعات الثقافة المضادة إلى عموم مواطني الطبقة الوسطى، وصار الآن هناك مؤسسات تساعدك في تحقيق ذاتك، وبرامج تعينك على اكتشاف نفسك، ومدربون يعلمون الناس كيفية استثمار إمكاناتهم الداخلية. ونتيجة لشيوع هذه الثقافة «الأنانية»، وُلدت مهن جديدة مثل المتحدثين العاميين Public Speakers والقادة التحفيزيين Motivational Leaders والمعلمين الروحيين Gurus، ومدربي المهارات الحياتية Life Coaches.

ويشير سيدرستروم إلى أن مفاهيم (النجاح) و(تحقيق الذات) أصبحت مرتبطة

ارتباطًا وثيقاً بالأداء الأفضل في سوق العمل، والدخل الأعلى، فأن تحقق ذاتك لا يعني فقط أن تكون إنساناً أكثر لياقة أو أكثر عطاءً، وإنما إنسان أكفأ في سوق العمل وقادر على زيادة دخله.

هيمنت هذه الثقافة النرجسية على الشعب الأمريكي، إلى حد أنه في مايو 2013م، نشرت مجلة Time الأمريكية غلافها مصورًا لفتاة تجلس على بطنها وترفع يدها لتلتقط سيلفي، ويعلوها عنوان: The Me, Me, Me Generation أو جيل أنا أنا أنا، وقد استلهمت المجلة مقال توم وولف القديم الذي يتناول نفس القضية، ولكنه حاليًا بصورة أكثر سلبية وكسلًا.

يرسم الفيلسوف الفرنسي جيل ليبوفتسكي في كتابه (عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة) ملامح هذه الشخصية الجديدة، شخصية (النرجسي)، لم يعد الرجل أبًا ولا المرأة أمًا، فقد تحول الجميع إلى (أنا)، النجاح الشخصي والتطوير الذاتي هو ما يعرّف الإنسان، أما دوره كأب أو أم، أو مدى نفعه

للمجتمع، أو دوره الاجتماعي والسياسي، كل ذلك لا يهم، أنا هو أهم شيء(65).

من حاسوب إليزا إلى وسائل التواصل: تعزيز النرجسية(66)

في الستينات كان هناك أحلام متفائلة بأنه من الممكن أن يفكر الذكاء الاصطناعي مثل البشر، حاول علماء الحاسوب محاكاة التفكير البشري لكن هذه المحاولات باءت بالفشل. وتتويجًا لهذا الفشل قرر جوزيف وايزنبام إنشاء حاسوب يسخر من منجزات العلماء زملائه، لكنه عن طريق الصدفة صمم حاسوبًا يعمل كمعالج نفسي للبشر، أطلق عليه اسم إليزا، حيث صاغه على غرار معالج نفسي حقيقي يكرر ما يقوله المرضى للمعالج فحسب عن طريق السؤال.

فحيث يكتب المريض عبارة ما فإن الحاسوب يعيده إليه بصيغة أخرى على هيئة سؤال. كان أول مستخدمي الحاسوب هو سكرتيرة وايزنبام وقد جاء رد فعلها غير متوقع تمامًا، فبعدما أجلسها وايزنبام على لوحة المفاتيح ووقف خلفها ليتابع أداء الحاسب، استدارت السكرتيرة إليه وسألته: هل تمانع الخروج من الغرفة من فضلك؟

اندهش وايزنبام، ورغم أن السكرتيرة كانت تدرك أن الحاسوب لا يفهم كلمة واحدة من كلامها إلا أنها لم تمانع من الجلوس أمام الآلة بالساعات مفضية إليه بأدق مشاعرها وأكثر تفاصيل حياتها حميمية. أحب الجميع إليزا لأنه يتحدث عن مشاعرهم، كما أحبوه أيضًا لخلوه من أي رد فعل يملي على الشخص أي تكليف، إنه صديق بدون أي تكلفة نفسية. أحد مجربي الحاسوب قال: «الحاسوب لا يضربك ولا يشعر بالإرهاق أو الملل منك، ولا يتعالى عليك، ولا يشعر بأحاسيس عاطفية تجاهك».

يعلّق آدم كرتيس على هذا الأمر قائلًا: «ما أظهره برنامج إليزا بوضوح هو أنه في عصر الفردانية، ما يجعل الأفراد يشعرون بالطمأنينة هو أن يجدوا أداة تعكس عليهم ذواتهم، تمامًا كالمرآة».

كان هذا أذان بدء نظام جديد يتمركز حول الفرد، حول الأنا، في حقبة من

الفردانية القلقة التي تخشى من المستقبل، فجاء ذلك النظام مطمئناً، تمامًا كبرنامج إليزا، نظام قام بدور فقاعة آمنة تحمي الفرد من تعقيدات العالم الخارجية. أثبتت التطبيقات العملية لهذا التوجه الجديد نجاحاً مبهرًا ومربحًا.

وهذا النظام هو بالتحديد ما تم تطويره لتقوم عليه وسائل التواصل الاجتماعي بأسرها: إذا كنت تحب هذا الشيء فستحب ذلك أيضًا. إنه نظام يتوقع احتياجات الأفراد المستقبلية وسلوكهم المتوقع. ومع نجاح النظم الذكية في تجميع المزيد من البيانات من الشبكة، بدأت أشكال جديدة من التوجيه في البزوغ.

لقد صممت وسائل التواصل الاجتماعي فلاتر إلكترونية، متمثلة في نظم إحصائية معقدة تحلل «إعجابات» الأفراد، ثم تمدهم بمزيد مما أبدوا إعجابهم به. وهو ما ترتب عليه انسحاب الأفراد، دون وعي، إلى داخل فقاعات معزولة عن عالم خارجي كامل من المعلومات. وصاروا لا يسمعون ولا يرون سوى ما يعجبهم فقط. وبدأت صفحات تغذية الأخبار News feed على مواقع التواصل تستبعد آليًا أي خبر قد يعارض المعتقدات الشخصية للأفراد.

اندثار الأمل؟

خلاصة ما سبق إذن أنه في السبعينات، كما يشير الصحفي الأمريكي توم وولف في مقالته (عقد الأنا) المنشورة عام 1976م، حدث تحول ثقافي جذري في المجتمع الأمريكي، حيث هجر الأمريكان رؤيتهم لأنفسهم كجزء من نظام اجتماعي مترابط، ارتباط الابن بأبيه والحفيد بجده وارتباط المجتمع بالمجتمع، وانقلبوا إلى السعي الأناني وراء الذات كمصدر للقيمة، عوضًا عن الاستجابة لقيم اجتماعية وواسعة(67).

تزامنت موجة الإحباطات الشبابية مع الانتهاكات التي ارتكبها الاتحاد السوفيتي وتحوله إلى دولة شمولية سلطوية، بدأ الشباب اليساري في فقدان الأمل في اليسار ومشروعه الثوري بعدما كانوا ينتمون إليه حد العبادة، انظر مثلًا معي إلى الكتاب الذي نشره مجموعة من الكتاب اليساريين بعنوان (الإله الذي فشل The God That

Failed) عام 1950م حيث وصفوا فيه كيف آمنوا بالشيوعية إيماناً مطلقاً ثم تخلوا عنها بعدما رأوا حقائقها وهزيمتها نظريًا وعمليًا، كنموذج عن تخلي الأوروبيين عن الإيمان باليسار(68).

وفي سياق مشابه، تحديدًا في عام 1952م، سرد الأمريكي ويتاكر شامبرز في كتابه (شاهد Witness)(69) كيفية تخليه عن الشيوعية عندما عرف بمذابح الشيوعيين في عهد (التطهير الكبير) الذي قتل فيه الاتحاد السوفيتي ما يفوق مليون إنسان(70)، فترك الحزب الشيوعي وابتعد عن السياسة وفقد اهتمامه بكل ما يتعلق بالشأن العام.

تصاعدت موجات الإحباط والتخلي عن الاهتمامات بالشأن العام منذ الستينات فصاعدًا، كما يوضح الفيلسوف الفرنسي جيل ليبوفتسكي قائلًا: «بعد الاضطراب السياسي والثقافي الذي شهدته الستينات، أصبح المجال الاجتماعي محط هجران تام وانصبت الاهتمامات على انشغالات شخصية بحتة.. فقد الشأن العام حيويته واختفى الأمل الثوري والاحتجاج الجماهيري واقتصر اهتمام الناس على تأمين الصحة وحماية الحالة المادية»(71).

ويصف الفيلسوف الفرنسي ميشيل لاكروا في كتابه (عبادة المشاعر) موجات تحول اليساريين نحو الفردانية في الستينات، حيث يذكر أن موجات الإحباط التي أصابت الشباب: «أفقدتنا الأمل في التغيير الجذري، وأغلقت أمامنا آفاق الفعل لخدمة فكرة مثالية أو صراع للطبقات. صار الشاب إذن يفكر كالتالي: (بما أن العالم لا يمنحني فرصة للتأثير فيه، فإنه لا يبقى لي إلا أن أمارس قدراتي على نفسي)»(72).

لم يعد الشباب إذن ينتمون لرسالة، أو لقضايا عقدية وثورية، بل صارت انتماءاتهم شديدة المحلية وضيقة الحيز، فهي تعبر عن أهواء أو تفضيلات شخصية لا أكثر، ولا تحمل عبء تبليغها للعالمين.

وحاليًا صارت الانتماءات أضيق وأضيق، وتعبر عن اهتمامات ذاتية جدًا، خذ مثلًا حركة حفاة الأقدام التي يحب أعضاؤها المشي حافيًا، أو رابطة محبي البقدونس، أو حركة مكافحة الكزبرة، أو الصحبة الموجودة في مكتب الشركة، أو مجموعة الحرفيين على فيسبوك، أو رعاة السلاحف ومحبو الكلاب والحيوانات الأليفة، أو تجمع لأحد ألوان الفن والموسيقى أو ألعاب الفيديو، أو مجموعة دعم نفسي محدودة، أو نحو ذلك.

والسؤال هنا هل هذه الجماعات تصنف كمظهر للفردانية أم للجماعية؟

الحقيقة أن هذه الانتماءات لا تفرض على الشخص أي تحول في نمط حياته ولا تملي عليه أي شروط للانضمام، كما أنها لا تحمل أي صبغة رسالية ولا تنعى هم تبليغ فكرتها للعالم، فهي مجرد اجتماع لأفراد ذوي ميول مشتركة يلتقون لقضاء بعض الوقت اللطيف وتبادل الخبرات ومشاركة الأوقات والأفكار ولا أكثر.

ومن هذا الباب يمكننا النظر إليها باعتبارها لواحق عما يحبه الشخص ويهواه، فالفرد يهوى مثلًا موسيقى الـ Jazz أولًا ويتعاظم حبه وشغفه بهذا اللون من الموسيقى ثم ينضم إلى إحدى مجموعات هذا اللون منها. أو أن الفرد ينشأ لديه ميول مهنية معنية في الوظيفة وال Career الخاص به ثم يرتبط لاحقاً بذوي الميول والاهتمامات المشتركة، دون أن يحمل همّ دعوة العالمين إلى هذه المجموعة، ودون شعور بأنه في معركة تستلزم الحشد والتعبئة والمواجهة.

ومن هنا يتضح الفرق بين الانتماءات الفردانية والانتماءات الجماعية. إذ أن الانتماءات الجماعية في الغالب تفرض مجموعة من القواعد التي يلتزم الجميع التزامًا صارمًا بها وتدعي تفوقها على كافة المنظومات العرفية والأخلاقية الأخرى، كما أنها تحمل همًا رساليًا على كواهل الأعضاء تغمرهم بشعور القتال من أجل هدف جماعي، أما الانتماءات الفردانية فهي باختصار تعزيز للميول الذاتية وتدعيم للأهواء الشخصية.

انتهى إذن عصر الجماعية، وبدأ فجر الفردانية.

باتت الثورة كلمة قديمة، وحان الآن موعد تنمية الذات.

فليذهب المجتمع إلى الجحيم، أنا أهم من كل شيء.

يقول أحد المدونين الأمريكيين: «عوضًا عن التفكير في الجماعة، يميل الأمريكيون - وأنا واحد منهم - إلى وضع أفكارهم ومصالحهم ورغباتهم في المقام الأول دون اعتبار للآثار المترتبة على ذلك بالنسبة للمجتمع ككل. عوضًا عن التفكر فيما يمكن أن يقال أو يُفعل من أجل مساعدة المجتمع، أو بالأهم ماذا ينبغي ألا يُفعل أو يقال، يبدو أن الأمريكيين مهووسون بالحقوق الفردية والتعبير الذاتي(73).

وفي نظرنا، مؤخرًا بدأت هذا الثقافة الأمريكية الفردانية، التي بدأت في الانتشار هناك منذ السبعينات، في الانتقال إلى العالم العربي، بعد إخفاقات الربيع العربي.

في الصفحات التالية، وفي الجزء الثاني من الكتاب برمته، سنستعرض مظاهر وأسباب الفردانية في العالم العربي، وما هي مقترحات تجاوز الفردانية من أجل إعادة قيم الوحدة والتماسك إلينا.

الجزء الثاني:

تحولات الشباب العربي

الفصل الرابع: مظاهر الفردانية

في الجزء الأول من الكتاب تناولنا الإطار النظري الذي نفهم من خلاله مصطلح الفردانية، كما أخذنا جولة سريعة على بعض التجارب التاريخية المشابهة لنا، لينتهي بنا المسير إلى حالنا نحن شخصيًا، وننظر في مظاهر ودوافع الفردانية حاليًا عندنا، وسبل تجاوز هذه النزعة.

في هذا الجزء، خلال هذا الفصل وما يليه، طرحت استبيانًا على 184 شابًا وفتاة من العالم العربي، توزعوا جغرافيًا بين عدة بلدان عربية مثل تونس والسودان والسعودية والأردن والإمارات والجزائر وعمان وفلسطين، وبشكل أساسي: مصر.

وقد تراوحت أعمار العينة بين 17 إلى 35 عامًا، وهو ما يعني أن العينة تقع بين مواليد 1985م و2003م، أي أن العينة تشمل شبابًا وفتيات من جيل زي Generation Z بنسبة 57 %، وآخرين من جيل الألفينات Millennials بنسبة 43 %.

وبنسبة 92 % كانت العينة إما طلابًا جامعيين أو حاصلين على شهادات دراسات عليا، أما 6 % فقد كانوا لا يزالون طلابًا في المدارس، وذكر 2 % فقط أنهم حاصلون على مؤهل متوسط.

لم يذكر سوى أقل من 5 % من العينة أنهم ينتمون لتنظيمات أيدولوجية في حين أقر 95 % أنهم غير منضمين لأي أحزاب أو تيارات، لكن رغم ذلك فقد حدد أكثر من 60 % من العينة أن الربيع العربي هو من أعاد تشكيل وجدانهم وأفكارهم فيما يخص اتجاههم إلى الفردانية.

في بداية الاستبيان قدمنا شرحًا لمن أجروا الاستبيان عن طبيعة النزعة الفردانية وتعريفها الذي أوردناه في بداية الكتاب: «الشعور بالاستقلالية عن الجماعات والمجموعات والتنظيمات والعائلات، وأي ارتباط جماعية أخرى» حيث إن الكلمة مستحدثة عند أغلب من أجروا الاستبيان وكانوا في الغالب أول مرة يسمعون

بالمصطلح لكنهم لما شرحنا مفهومه لهم بدأوا في تفسير سلوكياتهم في إطاره بالفعل حتى قالت فتاة مصرية: «كل ما في التعريف ينطبق عليَ بالحرف الواحد».

ووفقاً لإجاباتهم استنبطت بعض المظاهر والدوافع للنزعة الفردانية، قسمتهم ورتبتهم ثم وزعتهم على الفصلين بشكل موضوعي.

فإذا أردنا أن نبدأ الفصل بأبرز مظهر من مظاهر الفردانية، فإننا يمكننا القول بأن جميع الشباب والفتيات تقريبًا الذين أُجري الاستبيان عليهم قد غاب عنهم الانتماء لأي قضية جامعة للمسلمين أو للعرب، لم يقل واحد ممن أُجري عليهم الاستبيان أنه يفني عمره في سبيل العدالة الاجتماعية أو النضال الطلابي أو الثورة على المستبدين، وحتى هؤلاء الذين لا يزالون مؤمنين بهذه الأفكار لم يجدوا سبيلًا عمليًا لتنفيذ أفكارهم واقعيًا من خلاله.

كما أن الجميع اتفق تقريبًا أن القضية الفلسطينية صارت من إرث الماضي، وأن تغيير النظام أصبح هدفاً لذوي الخيالات الواسعة وأحلام اليقظة لا أكثر، وأن الثورة هي تضحية غير منطقية، لا سيما أن بعض الشعوب العربية لا تستحق من يضحي بحياته وعمره ووقته من أجلها، طبقاً لبعض الإجابات.

وبحسب الباحث جون ألترمان فإن ظاهرة الفردانية «تتسارع في الشرق الأوسط، فالأجيال الصغيرة لم تعد مقيدة بالروابط الاجتماعية التقليدية. هؤلاء يتجهون نحو تنظيم اجتماعي ذري، فالشباب أكثر قابلية للتنقل والعائلات مفككة بطريقة أكثر مما كانت من قبل، والمزايا الاقتصادية تحصل عليها من خلال عملك واجتهادك لا من خلال انتمائك الاجتماعي»(74).

في الصفحات التالية سنستعرض إذن بعض المظاهر التي لاحظناها كامتداد للنزعة الفردانية داخل عقول الشباب، وهم عشر نقاط يتلوهم التغير الحاصل في نمط تديننا كشباب.

1) تقليل الزيارات العائلية

نالت الزيارات العائلية نصيب الأسد من تعبير الشباب عن رأيهم في تفاقم النزعة الفردانية، فبسبب ذيوع الفردانية لم يعد الشباب يقضون أوقاتهم مع العائلة والتجمعات المنزلية في أوقات الغذاء والسمر والصلوات، بل صار كل فرد معزولًا عن بقية أفراد الأسرة ولا يحب الشخص تحمل تبعات الاختلاط مع الأسرة.

يصرح لنا شاب مصري قائلًا بكل عفوية ووضوح: «أكره الالتزامات الأسرية، وأتجنب التجمعات العائلية». كما يخبرنا شاب أردني أن التقليد كان جاريًا في بلده بأن يزور الولد أباه وأمه في بيتهما، لكنه الآن يرغب أن يزوراه هما في بيته، لأنه منشغل بشدة في عمله، كما أن الطريق مرهق ومكلف.

وأكد لنا طالب سوداني على أن علاقات الشباب مع أصدقائهم «صارت أقوى مع أصدقائهم لأنها علاقات اختيارية تخضع لعالم الشخص الخاص، في حين أن الأسرة مجبر عليها المرء».

وفي هذه الحالة الأخيرة يأتي الهروب من الاختلاط مع العائلة في إطار تنامي نزعة فردانية تؤثر راحتها النفسية على صلة الرحم أو حتى التواصل مع الناس، فالتواصل مع الناس له ثقل نفسي وواجبات اجتماعية لا يميل الفردانيون إلى تحملها، ولذلك تخبرنا طالبة سعودية: «تحمل سلبيات الفردانية أسهل بكثير من تحمل سلبيات الاختلاط غير المريح».

وتخبرنا شابة تونسية عن أثر الفردانية في تحويل رؤيتها للقيم العائلية من كونها قيمًا إيجابية إلى أخرى سلبية فتقول: «فقدان القيم التي أتعجب من رؤيتها في الجيل الأكبر لدرجة الاستنكار ورؤيتها كضعف أحياناً. فمثلًا والدتي لا تأكل إلا مع أحد وتنتظرنا إلى أن نستيقظ. بينما أنا وإخوتي لا ننتظر (اللمة) أي الاجتماع للغذاء، إلى درجة أني أفضل أن آكل وحدي ولا أحب الانتظار إن كنت مجبرة على التجمع.

أيضًا أصبحت أكره التجمعات العائلية وبذل بعض الوقت في سبيل الأنس بالأسرة فأقضي معهم بعض الوقت على مضض كأنهم سلبوني وقتي الخاص بي وبما أريده وحدي. أيضاً أشياء مثل تقديم الضيف وراحته على راحتي، لا أستطيع أن أتفهم ذلك

وأكره الضيوف الذين يجبرونني على ترك غرفتي لأجلهم حتى وإن كانوا مرضى، أقول ذلك بأسف لكن هذه حقيقة الوضع».

الثقافة الفردانية إذن تحب العلاقات المريحة غير المكلفة، إنها علاقات الجيب العلوي بتعبير الفيلسوف النمساوي زيجمونت باومان(75)، التي يصفها شاب مصري لنا قائلًا: «خواء العلاقات من العمق، سواء مع الأهل أو الأصدقاء. الكل يريد الانتهاء سريعًا من الحوار أو الزيارة للانشغال بمتعته الفردية».

ولذا فإن بعض الشباب يبدون استعدادهم لرمي الانتماءات العائلية وكافة علاقاتهم الإنسانية وراء ظهورهم مقابل توفير حياة جيدة لهم كما تقول لنا فتاة مصرية قائلة: «ليس عندي مشكلة أني أسافر وأترك كل شي، أهل وأصدقاء وكل شيء».

2) تراجع دور كبير العائلة

تؤثر النزعة الفردانية على العلاقات العائلية سلبًا، فتتباعد المسافات وتتفكك الأواصر وتتعاظم قيمة الفرد على حساب العائلة الممتدة، وإحدى نتائج هذا التفكك هو التراجع الملحوظ لدور كبير العائلة أو شيخ العشيرة في حياة الفرد.

كان الدور التقليدي للكبير هو فض النزاعات والتحكيم في الخلافات، والرجوع إليه طلبًا للمشورة والحكمة، ونصرة الضعيف وتقويم المخطئ، وغير ذلك.

ويتبين مدى أهمية دور كبير العائلة في المثل الذي يتداول في العرف المصري: «اللي ملوش كبير يشتري له كبير». فغياب دور كبير العائلة يعد أزمة كبيرة قد تدفع المرء إلى إنفاق ما بين يديه من أجل إيجاده في حياته، فالكبير يكون بمثابة القائد في مواجهة الأحداث والنوازل، وهو شخص مسموع الكلمة رفيع القدر نافذ الحكمة وقور الهيئة، وكلمته لها سلطة على كافة أفراد الجماعة.

لكن عبر سنوات من تفكيك الأواصر الجماعية وتنامي النزعة الفردانية، اندثر دور الكبير في الشباب، وصار الشباب أفرادًا يعيشون في جزر منعزلة لا يربطهم بعائلاتهم

أي رابط.

فمثلًا يخبرنا أحد الشباب العراقي أنه حدث نزاع مع أحد أصدقائه، «ثم لما تفاقم الخلاف ووصل إلى الإهانة والسب، بحثت عن رجل ألجأ إليه له سلطة أو يد على صديقي حتى يراجعه ويقوده إلى استرجاع حقي، لكني لم أجد له كبيرًا، لم يعد يسمع صديقي أحدًا، فقط يسمع لنفسه».

وفي حادثة مماثلة، يحكي لنا شاب مصري تجربته مع أثر غياب الكبير في حياة أصدقائه: «في إحدى السنوات أكل أحد الناس حقي من مال كنا اتفقنا عليه سويًا، فلما طالبته بالمال مرارًا وتكرارًا لم يستجب، فلجأت إلى شيخ كان يعظمه من اختلفت معه، وبالفعل تحدث الشيخ من الرجل، ثم أخبرني الشيخ أن الحق معي، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأن الرجل ما عاد يسمع أحدًا ولن يستجيب للشيخ ولا لغيره، وأهدر حقي بسبب ظلمه».

وتشتكي طالبة سعودية من ذات الأمر، فتقول: «أنا الآن عندي 21 عامًا وتائهة وما زال وعيي وتفكيري يتغيران باستمرار، أتردد بين الطرق ولا أجد مرشدًا يعينني على فهم الحياة ومتابعتي في تعلمي وترتيب منهجية التلقي للعلوم».

وهذه الرسالة الأخيرة ليست بغريبة، فدور الكبير في الحياة لا يقتصر على الوجود الصوري وقت النزاعات بل يتجاوز مجرد حل الخلافات ويمتد ليشمل الإعانة في وقت الضيق وتعلم مهارات الحياة منه وتعلم القيم الإسلامية والتربوية وأحياناً البحث عن زوج أو زوجة مناسبين أو حتى إيجاد وظيفة، لكن تضاءل هذا الدور مع تنامي النزعة الفردانية، دون إيجاد بديل مناسب.

3) الجميع يكتب.. فمن يقرأ؟

عززت الفردانية من قدرة الإنسان على صياغة قيمه وأفكاره الخاصة بوصفها أفكارًا ذات وجاهة تستحق التدوين والنشر والدعوة إليها لا لشيء إلا لأنها نابعة من ذاته. لقد كان الشباب قديمًا يعدون أنفسهم في طور التعلم، يخفضون الجناح لمن

يعلمهم ويقدرون قيمة العلم والعلماء، فيلجأون إلى المتخصصين وذوي العلم من أجل تحصيل العلم واكتساب الخبرة من ذوي المعرفة والحكمة.

ولكن صار الوضع الآن مختلفاً، فالشاب أو الفتاة يُطعَم كل يوم بأنه استثنائي، ومميز، وخاص، ومهم، مما ولد عنده إحساس بالتفرد، إنه يستطيع تحكيم عقله في كل شيء، ويقدر على موازنة الأمور برأيه دون الحاجة إلى وصاية ودون اللجوء إلى رأي خارجي. وكم من أناسٍ ورموز على السوشيال ميديا ضاعوا وأضاعوا بسبب تصدرهم المبكر دون تأهيل أدبي وإيماني وعلمي كافٍ.

وقد كانت المشكلة في التراث الإسلامي موجودة كذلك وحذر منها الإمام الشافعي قائلًا: «إذا تصدر الحدَث [أي الصغير] فاته علم كثير». وقال سفيان الثوري: «من ترأس سريعًا أضرَّ بكثير من العلم»(76).

لكن الشاب في ثقافة النرجسية الحديثة ما عاد مهتمًا بقضية التعلم أو منكبًا على الطلب والتحصيل، قدر ما هو معني بالقراءة النقدية والتفكير النقدي والبحث النقدي والتحليل النقدي وحتى استفتاء الشيوخ بشكل نقدي، هذا بدون تحصيل الحد الكافي من أدوات النقد، لغويًا أو علميًا أو منطقيًا أو دينيًا.

وإحدى آثار إيمان الشباب بقدراتهم الشخصية النابعة من النزعة الفردانية هو ما نراه من فوضى في معرض الكتاب الذي كان ساحة للسجال الفكري ومنصة ثقافية للنشر الأدبي والعلمي، فقد صار المعرض في السنوات الأخيرة ساحة لغزو الروايات الشبابية التي اكتظ بها المعرض عن آخره، شباب مغمورون وكاتبات لم يزكيها أحد ولا تمتلك الحد الأدنى من المهارة الأدبية اللازمة للنشر، الجميع يؤمن بقدرته على الكتابة والإبداع والتعبير حتى لو كان ضحل الثقافة، عديم المعرفة، وبضاعته في العلم والأدب مزجاة.

نعم لقد أتاحت ثورة التقنية المجال أمام الإعلام البديل والتخلص من أحادية السلطة وفتحت آلاف الفرص أمام العديد من الموهوبين لإظهار وتقوية قدراتهم بالفعل. ولكن أمام هذه الإيجابيات فإنها حملت بين براثنها سلبيات لا تحصى ولا تعد

أفسدت الذوق العام بلا مبالغة.

ولذا يهاجم الأستاذ الإيطالي أومبورتو إيكو هذه النزعة الفردانية المتمثلة في رغبة كل إنسان على تدوين ما شاء وتحويله إلى صاحب رأي وكلمة بين يوم وليلة، وبلسان لاذع يقول: «إن أدوات مثل تويتر وفيسبوك تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناول كأس من النبيذ، دون أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع، وكانوا يُسكَتون فوراً. أما الآن فلهم الحق بالكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل. إنه غزو البلهاء»(77).

تذهب الروائية المصرية سلوى بكر مع ما ذهب إليه إيكو بقولها «الثقافة السائدة هي ثقافة السوق، وهي ثقافة تجعل من الكتاب الأدبي سلعة تُطرح كأية سلعة أخرى في السوق تبحث عن الربح والخسارة، وأن ثمة آلة تعمل على ترويجها وتكريسها»(78).

أسهمت النزعة الفردانية إذن في صعود عدد من الوظائف التي لم تكن موجودة من قبل، الكاتب والروائي والمدون، المؤثر **Influencer**، مدرب المهارات الحياتية **Life Coach**، المتحدث الملهم **Motivational Speaker**، إنها وظائف تعتمد على خبرة محدودة وشهادات تكاد تنعدم ولا تتطلب أكثر من صفحة على مواقع التواصل تدون فيها ما تشاء ولو لم تقرأ حرفاً واحدًا في حياتك.

4) من تتابع على السوشيال ميديا؟

تعاقبت ردود الشباب على سؤال من تتابع على صفحات وسائل التواصل واتفقت على أمر واحد: الشباب يتابعون الشخصيات المؤثرة التي تعبر عن أفكارها الخاصة حول الحياة والفن والمجتمع والفكر، ويبتعدون عن المراكز والمؤسسات التي تتناول أخبار وتحليلات الشأن العام أو الحركات والتنظيمات التي تحاول تغيير الواقع.

وبدلًا من أن تكون وسائل التواصل الاجتماعي أدوات لتقريب الناس أو منصات لتغيير وتلقيح الأفكار فإنها صارت معززات للآراء الفردية ومقويات لوجهات النظر

الشخصية لا أكثر. وقد أكدت الأستاذة الأمريكية ماري أيكين على هذا الأمر قائلة: «الأمر الذي لاحظته خلال دراستي لعلم نفس الإنترنت هو أن القناعات والسلوكيات الشخصية التي يفعلها المرء قبل أن يدخل عالم الإنترنت يتم تعزيزها وتقويتها في عالم الإنترنت»(79).

تخبرنا فتاة مصرية عن تغير سلوكها على وسائل التواصل تبعًا لتغير سلوكها واقعيًا، فتقول: «كنت في المرحلة الثانوية أتابع صفحات تتحدث عن حراك الربيع العربي وتطورات الأحداث في المنطقة، شغفي بكل ما يحدث حوّل صفحتي إلى منصة أخبار. الأمر الآن تغير وأصبحت معظم صفحتي تدور حول أدوات التزيين ومستحضرات التجميل. وأينما ذهبت مع صديقاتي يكون هذا هو النقاش الغالب».

ويتفق معها شاب أردني قائلًا: «في فترة من حياتي كانت صفحاتي عبارة عن مراكز بحثية ومقالات مطولة وتحليلات للوضع الراهن في المنطقة. تفضل الآن وانظر إلى صفحتي: أتابع من يتحدثون عن الصحة النفسية وأهتم بمتابعة من يقدمون محتوى خفيفًا ترفيهيًا لا يجلب لي المتاعب».

وفي نفس السياق يخبرنا شاب مصري عن شعوره عندما تخلى عن متابعة الصفحات التي تروج لقيم جماعية واتجاهه إلى صفحات أكثر فردانية بسبب أنه يريد أكبر قدر من الراحة الشخصية قائلًا: «أنا مثلي مثل كثير من الشباب لا أتابع سوى ما يريحني، لأن المحتوى على وسائل التواصل أصبح سهل التوجيه ونستفيد من إنشاء عالم افتراضي خاص بنا خالٍ من صفحات ومواقع الأخبار السياسية مثلًا.

حتى الشخصيات الدينية لم أعد أتابعها واقتصر على صفحات الهلس [أي التفاهة باللهجة العامية المصرية] وقنوات معينة هي كل ما نتلقاه فترة استخدامنا للهاتف. الشاب العادي من زملائي حجّم عالمه وخصخصه بل وأصبحت له حرية تغيير عناصره بدون أفضلية لواحد منها على الآخر سوى ما يهدف لمتعته وكسر مللّه».

وبنظرة مماثلة تحكي فتاة تونسية لنا قائلة: «أرى في كثير من البنات حولي انغماسًا في الاهتمام بالتجميل والزينة «لدرجة مفرطة» مع حب التقاط الصور

ونشرها على وسائل التواصل، رغم ما يكلف ذلك من وقت وجهد ومال كان من الأولى إنفاقهم في باب للنفع العام أو تنمية الذات على الأقل كبداية للإصلاح العام. وأعرف من هؤلاء الفتيات من كانت تشارك في النضال السياسي والاجتماعي لكنها الآن لا يشغلها سوى عملها ومستحضرات التجميل ونشر التفاهات والمسلسلات على صفحتها الشخصية».

ويوضح شاب مصري سبب الإعراض عن الحملات والانتماءات الجماعية على السوشيال ميديا قائلًا: «نظرًا لأن الأخبار تمنعني من المضي قدمًا في حياتي، فقد ألغيت متابعة صفحات الأخبار لأنها لا تبشر غالبًا بالخير. أحاول الآن جاهدًا التقوقع على نفسي كل سنة أكثر من ذي قبل. عند التحدث عن أمر يشغل الرأي العام، لا أرى أن أي عمل يسهم في رفع الظلم وإقامة العدل».

تمثل صفحات وسائل التواصل الاجتماعي إذن مؤشرًا للمرء على سلوكه الفرداني أو الجماعي بحسب الأخبار والشخصيات والمواضيع التي يهتم بمتابعتها والتعليق عليها. وفي حالتنا فإن العينة تشير إلى اتجاه آخذ في التصاعد نحو متابعة الأهواء والأذواق الشخصية والتخلي عن الأهداف والمواضيع الجماعية.

5) فتور الدعاء للأمة

عبر السنوات الماضية كانت المساجد العامة، بالإضافة إلى التيارات الإسلامية المختلفة عبر أرجاء العالم العربي تدعو بنصرة المجاهدين، وتحرير المسجد الأقصى، ورفع البلاء عن المستضعفين، وشخصيًا لم يكن يمر علي مسجد تقريبًا في رمضان إلا وكان الدعاء لفلسطين أمرًا ثابتًا أياً كان الإمام أو مذهبه أو سنه.

كانت المساجد تدفع الشباب إلى خلق حالة من المزاج العام ضد أعداء الأمة الإسلامية حتى لو ببضع كلمات في الدعاء والقنوت، ومن المواقف الملفتة التي أحدثت تأثيرًا غريبًا، أنه في عام 2012م حدثت مشاجرة إلكترونية بين قطاعات مختلفة من الشباب بسبب دعاء أحد أئمة المساجد الكبرى في مصر على الليبراليين والعلمانيين الذي يريدون شرًا وتعطيلًا للشريعة بمصر، الأمر الذي يبين قوة الدعاء

ودلالته في قراءة توجه الجماهير.

لكن مع تصاعد الثقافة الفردانية، خفتت أصوات الدعاء وضعف الابتهال لله برفع الغمة عن الأمة، واكتفى الشباب والفتيات بالدعاء لأنفسهم وحياتهم الخاصة، وتناسوا الدعاء لإخوانهم في الأمة الواحدة، وصار الدعاء أمرًا نادرًا.

تحكي لنا إحدى الفتيات السعوديات كيف أنها عاينت هذا التحول قائلة: «في هذه الأوقات أنا قليلة الدعاء لإخواني المسلمين في كل مكان، مع كثرة الدعاء لي ولأسرتي، كما ألاحظ حزني على أمر من أمور الدنيا يخصني، مع عدم تذكري للمسلمين المعدمين والفقراء من حولنا. عندما ابتليت بمرض أخي، كنت لا أتوقف عن الدعاء والصلاة، وكان الدعاء بذلّ شديد، لكني لم أكن أدعو بهذا الشكل لأي مريض من المسلمين.

أما من حولي، فأنا أرى الكثير ممن لا يهتم أصلًا بأخبار المسلمين، وربما اهتم بغيرها بشكل ملاحظ، وإذا وصله شيئاً من أخبارهم، نظر إلى حاله، فإن كان مستقرًا، فكل شئ بخير إذن».

وراسلني أحد الشباب المصري قائلًا: «طيلة عمري كنت أدعو لإخواني في فلسطين بالنصرة على اليهود، ومع قدوم الربيع العربي صار ورد دعائي ثابتاً لأهلي في سوريا والعراق واليمن، تعلمت هذا الأمر من والدي الذي كنت أسمعه يلهج بالدعاء قديمًا لأفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك. ثم تقدم بي العمر وحدث ما حدث للربيع العربي، والآن نسيت تمامًا الدعاء لأي بلد. لا أدعو سوى لنفسي أو لأهل بيتي، إن تذكرت الدعاء أصلًا».

ولذا ينبه المدون المغربي محمد سويح إلى أهمية معنى الانتماء في عبادات وعبارات بسيطة قائلًا: «من المفاهيم التي ينبغي المحافظة عليها داخل المجتمعات، مفهوم الأخوة الإسلامية، كلمات من قبيل :(يا أخي، أحبك في الله...)، وكذا التواصي بالدعاء، والدعاء لأمة الإسلام بالعزة والنصر والتمكين، والدعاء على أعدائها بالذل والخسران، هذه المفاهيم يجب أن لا تغيب داخل المجتمع خصوصًا مع تغول

الفردانية إلى مجتمعات الإسلاميين. فإحساس الانتماء إلى مجموعة من الناس تجمعك معهم نفس العقيدة ونفس اللغة والعادات أحيانًا، يجب أن لا يخبو، أن تقول للشخص: (يا أخي) ليست دروشة ولا سذاجة، بل ترسيخ لمعنى شرعي عميق اسمه: أخوّة الدين»(80).

بل أن الثقافة الفردانية غيرت مفهوم الدعاء ذاته وصار أشبه بالمقايضة مع الله لا الطلب منه عز وجل، فبسبب شيوع تعظيم الأنا فإنه يضع نفسه في موضع الند أمام الرب، بمعنى أنه يفكر بمنطق أني عبدت الله بكذا وكذا فلا بد أن يستجيب دعائي بكذا وكذا، وكأن العلاقة صارت تجارية أو هندسية.

هذا الخلط المفاهيمي الشديد في تصور العلاقة بين العبد وربه وفي تصور مفهوم العبودية ذاته له عدة مسببات من أهمها هو تعاظم نزعة الأنا والشعور بالاستحقاق في أي علاقة يخوضها الإنسان حتى لو كانت هذه العلاقة هي العلاقة مع الله سبحانه وتعالى وكل هذا أثر من آثار الفردانية.(81)

6) الانخفاض النوعي والكمي في العمل التطوعي

في الثقافات الجماعية ينتشر العمل التطوعي بين الناس لغلبة الرابطة الاجتماعية وقوتها بين أفراد المجتمع وسعيهم جميعًا نحو خدمة أهداف مشتركة وشعورهم بالتضامن والولاء مع بعضهم البعض.

وعلى النقيض فإن الثقافات الفردانية تختلف بشكل كبير عن مثيلتها الجماعية، حيث تغيب معاني التضامن والانتماء وترتفع قيم النجاح الشخصي والإنجاز الذاتي ومن ثم يتجه الفردانيون إلى العمل التطوعي الذي يخدم أهدافهم الشخصية ولا يستمرون كثيرًا في التطوع كما يستمر الجماعيون(82).

وبسبب التحول نحو الفردانية فإن العالم العربي انخفضت فيه صور العمل التطوعي بشكل ملحوظ، كما يلفت مهندس مصري نظرنا إلى اضمحلال ثقافة التطوع بين الشباب قائلًا: «استوقفني في أحد الجوامع صلاة العديد من المصلين

على سجادة شخصية لتهالك سجاد المسجد، فقارنت بالوضع في السابق أن إذا تهالك السجاد يجمعون المال لتغيير كامل السجاد في المسجد. مثل هذه السلوكيات لم أعد أراها.

في المؤسسة التي أتطوع بها أعمل في فريق مكون من 20 فردًا، أجد صعوبة كبيرة في تجميعهم سويًا، فهم لا يلتزمون بحضور أي مواعيد رغم أنهم متفرغون، ربما لا يحضرون إلا إذا كان اللقاء مليئاً بالترفيه والمرح والأنشطة الخفيفة، أما التطوع ومساعدة الناس دون مقابلٍ ودون جانب ترفيهي فقد صار شيئاً ثقيلًا عليهم».

ويشتكي أحد الشباب السعوديين من نفس الأمر قائلًا: «في المؤسسة التي كنت أتطوع بها، كانت العادة أني إذا ذهبت إلى مقر المؤسسة وجدت عشرات الشباب مستعدين للعمل التطوعي وجاهزين للانطلاق حيثما يأمرهم مدير المؤسسة في الحملات أو الأنشطة التطوعية. لكن بعد مرور سبع سنوات من 2011م، فإني بالكاد أجد شابًا واحدًا في المؤسسة. لقد انصرف الجميع إلى أعمالهم الخاصة وما عاد أحدٌ يهتم بالتطوع».

وفي الجامعات، حيث المجتمع الطلابي الفعال والإرث النضالي الطويل للحركة الطلابية، فقد غابت تقريبًا الأنشطة الهادفة وانحصرت الأنشطة في الجانب الترفيهي، يقول لنا أحد الطلاب المصريين: «من اللحظة التي أدخل فيها باب كليتي وأنا أعد اللحظات من أجل الخروج منها. الساحة الطلابية مليئة بالفتيات والشباب الذين يقفون في ستاندات [منصات] لدعوة الناس للانضمام للأسر الطلابية. حاولت في مرة أن أندمج مع إحدى هذه الأسر بنية تطوير النفس وتراكم الخبرات، لكن كل ما وجدته هو التفاهة وتضييع الوقت والمزاح بين الفتيات والأولاد. كل الأسر تقريبًا على نفس الوتيرة، ما عاد أحد يتحدث أو يهتم بأمور جادة سوى عدد قليل من الأسر الجامعية تعد على أصابع اليد الواحدة».

هذه الصورة التشاؤمية للمجتمع الطلابي حاليًا شاهدتها بنفسي كلما نزلت إحدى

الكليات في مصر. فمثلًا بإجراء مقارنة سريعة بين عامي 2012م و2021م فإن عام 2012م كان لا تخلو فيه ساحة كلية من أنشطة وأسر طلابية تقدم خدمات عامة للطلاب أو تطالب بحقوق الطلاب السياسية أو تشارك في الشأن العام سواء في العمل الإغاثي أو الدعوي أو الخيري أو الثقافي أو غير ذلك. إن كلية واحدة كانت ربما تضم أكثر من 10 كيانات طلابية جميعهم يعملون في الشأن العام.

أما حاليًا فقد اختفت هذه الكيانات تمامًا وحل محلها أنشطة ترقص فيها الفتيات مع الأولاد على أنغام الموسيقى والطبول، في قلب الكليات وفي ساحة الجامعات بتشجيع من إدارات الجامعات، وأحياناً يستقدمون مطربين ومغنيين إلى داخل الحرم الجامعي وتمتلئ الجامعة عن آخرها بالطلاب، في الوقت الذي تُمنع فيه أي أسرة ذات نشاط سياسي أو توعوي أو ثقافي، وإن وُجدت فهي ذات عدد محدود جدًا.

7) السلبية، واندثار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أحد أخطر آثار شيوع النزعة الفردانية برأينا هي إعراض الشباب عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقل مساحات إنكار المنكر والدعوة إلى الله في مقابل إعلاء قيم القبول والحرية الشخصية. لم يعد أحد يهتم بما هو خارج عن ذاته، ولا يشعر الشباب بالانتماء إلى أحد ومن ثم فلا واجب أخلاقي عليهم تجاه أحد.

يروي لنا أحد الشباب الإماراتيين: «تربيت على قيم أسرية محافظة، تعلي من قيمة الأخلاق الحسنة وترفض الأخلاق الخسيسة والدنيئة، ولم يكن هناك انحرافات في عائلتي أو قريتي التي أسكن بها، وكنت أعمل كمحفظ للقرآن في أوقات فراغي. في الوقت الحالي لم أعد أهتم بتحفيظ القرآن لأحد، وتقبلت كل آخر ولو كان مرتكبًا للمنكرات، لست واصيًا على أحد حتى أغيّره أو أنصحه، فطالما الآخر مستريح لما يفعل فلا يعنيني شيء».

ويكاد ينطبق ما قاله الشاب الإماراتي مع ما حكاه شاب سعودي لنا: «عندما كنت أسافر إلى مدن خارج مكة والمدينة، كان من الطبيعي أن أرى هيئة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر حاضرة في الشوارع، الآن توقفت الهيئة تقريبًا عن العمل، ولم يعد أحد ينكر ما نراه في شوارعنا الآن. أنا نفسي لم أعد أتأثر برؤية شيء غلط. فليفعل من يشاء ما شاء طالما لم يؤذني».

ونفس الأمر ذكره لنا طالب مصري قائلًا: «أحب التمحور حول قيم الأنا، أنا أريد أن أكون قائدًا لنفسي، ببساطة فإن الأنا أفضل من أن أضر أحدًا أو أن أنضم إلى أي فئة أو جماعة، أنا حر ما لم أضر». وذكرت لنا طالبة مصرية أيضًا: «أنا أعترف أني أتمركز حول نفسي ولا أملك شيئاً لأفعله لمن حولي أو للمجتمع بشكل عام، ومثلي الكثير».

وتحكي لنا فتاة مصرية عن أثر النزعة الفردانية على شيوع السلبية في المجال العام قائلة: «أحد مظاهر الفردانية هو تعامي المجتمع عن التحرش، ففي أحيان كثيرة أنا أزعم أن ملابسي غير خادشة إطلاقاً وأن حجابي قريب للصحيح، وهذا أقوله كمقدمة وليس كتبرير، ومع ذلك تعرضت للتحرش الجسدي على مرأى من شارع كامل، ولم يتحرك أحد لنجدتي أو لإنزال العقاب على المتحرش، لم تتحرك سوى امراة خمسينية وجدتني أبكي ومنهارة فقالت لي: قولي حسبي الله وهدأت من روعي وفقط».

8) نوعية الكتب الأكثر تداولًا ومبيعًا

في مجال السينما انتشرت نوعية «الأفلام التجارية» الخالية من أي قيمة فنية، والتي تهتم بإيرادات الفيلم على حساب فكرة العمل السينمائي وجماليته وجودته، وكذلك في مجال الأدب ظهرت روايات «ما يطلبه الجمهور» والتي تلبي الرغبات الثقافية والأدبية لدى الشباب دون مراعاة للقيمة الأدبية والحقيقية للعمل الأدبي.

وعلى صعيد آخر، تعبر الكتب الأكثر مبيعًا في دور النشر عن توجهات القراء، ولذلك تستخدمها بعض الأنظمة لمراقبة أفكار الجمهور ورصد أمزجة الشباب، من أجل توجيه الرأي العام(83). ومع تنامي النزعة الفردانية في العالم العربي نجد أن أغلب الكتب الأكثر تداولًا ترتكز حول الحكايات الشخصية والقصص العاطفية والتجارب الذاتية. إنها كتب تلمس ما بداخل كل إنسان ولا تتناول ما هو خارجه.

ونظرة سريعة إلى دور النشر في معرض القاهرة الدولي للكتاب سيتضح لنا ذلك بجلاء. يخبرني أحد الشباب المسؤولين عن إحدى دور النشر: «ننشر كتبًا فكرية وتاريخية وروايات تعزز من قيمة الانتماء إلى الأمة الإسلامية. لكن في كل معرض نتجه إليه من المغرب للرياض فإن أكثر ما يُباع عندنا هي الروايات ذات الشجون العاطفية والحكايات الغرامية».

كما وضحت طالبة سورية إحدى نتائج شيوع النزعة الفردانية بين الشباب وهي: «الانتشار الشديد بين القراء من طلبة الطب لنوعية من الكتب التي تختزل الدين في النمو الفردي، فتجعل من العمل ببساطة هو الدراسة والسفر والبحث عن المتع وتفريغ الأمر من أي هم للدعوة أو الدين أو واقع المسلمين ومن العلم العلم الدنيوي المادي.. أعتقد أنك فهمت قصدي تحويل الدين إلى (يوغا) لمنحك الراحة النفسية، في حين أنك تعيش حياتك وتتخذ قراراتك دون أي اعتبار لأوامر ونواهي الشريعة».

وحتى في مركز دلائل مثلًا كان أكثر الكتب مبيعًا عام 2020م هو كتابي السابق «الهشاشة النفسية»، على الرغم من المجالات الكثيرة التي تنشر لها الدار، مثل مقارنة الأديان ونقد الإلحاد وتفنيد الشبهات بالإضافة إلى الترجمات والكتب الشرعية في علوم القرآن والحديث جنبًا إلى جنب مع الكتب الفكرية والتاريخية، لكن جاء كتاب الهشاشة النفسية متصدرًا لأنه -من ضمن الأسباب- يخاطب ما يخص الفرد فحسب ولا يتناول مواضيع الانتماء الجمعي أو القيم الجماعية التي لا تستهويها فئة الشباب، ولو كان هذا الكتاب نُشر في 2012م مثلًا لما كان له أي صدى يُذكر حسب ما أتوقع.

وينعكس ذلك أيضًا على المكتبة الشخصية للشباب ونوعية الكتب المفضلة التي يقرأها الشاب أو الفتاة، كما تخبرنا إحدى الفتيات السوريات: «قبل سنوات مضت كانت مكتبتي عبارة عن مؤلفات في علوم القرآن وتدبر الآيات، وفي القضية الفلسطينية والتاريخ الإسلامي، ومع تغير اهتماماتي وإدراكي أن المشكلة أولًا في أنا قبل أي شيء آخر، صارت مكتبتي زاخرة بكتب الصحة النفسية والعلاقات

الناجحة ومهارات التواصل والحياة».

9) رغبة الفرد أن يكون هو محور الحديث

تدفع النزعة الفردانية الإنسان إلى الاعتقاد بأنه محور الكون، وأن الشخصيات والأحداث كلها ينبغي أن تدور حوله، فيعظم من مشاعره وإنجازاته وأفكاره وخواطره بشكل يطغى ويكاد يمحي أي وجود لأي أفكار أو مشاعر أخرى، فلا يحب أن يتحدث سوى عن أفكاره ولا يستسيغ المجلس إلا إذا دار الكلام حوله.

وهذا ما تنقله لنا طالبة أردنية وهي تحكي: «لاحظت اهتمام كثير من الفتيات صديقاتي وزميلاتي اهتماماً مبالغاً فيه بالحديث عن أنفسهن وشخصياتهن وما يحببن وما يكرهن، مع أن الحقيقة هي أنه لا أحد يهتم، أو أن ذلك مهم بالنسبة لهن فقط. إنهن يرون أن كل حدث يقع معهن فريد ومهم وكبير وجدير بالحديث عنه وكل رأي لهن عظيم وينبئ عن عقلية عالية! حتى عند الحديث عن شيء من أمر الأمة أو المجتمع تجدهم بلا وعي يدورون الدفة لتعود وتتجه إليهم وعن نظرتهم للأمر وما يقولون فيه».

كما تذكر لنا طالبة أخرى من القاهرة: «أعرف عددًا من الأشخاص يفعلون نفس الشيء: الشخص يظل يعتقد أنه الوحيد صاحب المشاكل والأحزان، وطوال الوقت يظل يتكلم عن نفسه وعن الضغوطات التي تقع عليه، لا يمل من الحديث عن إنجازاته والأنشطة التي يشارك فيها والكورسات التي يأخذها حتى يأتي لك ويحكي إنجازاته متحديًا إياك.

وفوق ذلك فإن هذه الفئة من الناس يستخدمون كلامك ومشاكلك في تحويل دفة الحديثة إلى أنفسهم. ما يهمني هو أنهم لا يسمعون مشاكل من يخاطبون أو إنجازاتهم. بمعنى أنك ما دمت منتبهًا معهم أثناء كلامهم عن أنفسهم فستجد في أعينهم الحماس، وفي اللحظة التي تقرر المشاركة والحديث عن نفسك تجد التجاهل والمرور سريعًا على كلامك حتى يتحدث هو مرة ثانية وثالثة ورابعة».

وهذا تحديدًا هو ما أخبرتنا إياه إحدى الفتيات المصريات إذ أنها لم تعد تتحمل حتى مجرد سماع مشاكل صديقاتها، فكل مشكلة سوى مشاكلها الشخصية تمثل لها عبئاً ينبغي التخلص منه، تقول الفتاة: «أبدأ حديثي بأني تفاجأت عندما قرأت معنى الفردانية، فالتعريف بأكمله يدور حولي! أنا لا أهتم أبدًا بأمر العامة، لا أتحدث هنا عن قسوة القلب ولكني أؤمن بـ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ] فلا أبالي بأي شئ خاصةً مع كثرة الفساد واللغط والتنظير من حولي.

نعم أنا لا أحسب نفسي تقية ومصلحة لهذه الدرجة ولكن على الأقل أعدّني مقاتلة من الدرجة الأولى لإصلاح نفسي أولاً ما استطعت. وكلما طرأ في ذهني أمرٌ من أمور العامة أقول لنفسي: «وأنا ما لي؟! أنا فتاة، وأفعالي وصوتي لن يحدثوا فرقاً مذكورًا، سأكبر في عملي وأتقرب إلى الله وأتعلم أمورًا جديدة وأتزوج وأربي أطفالي.

وإذا اتصلت بي إحدى صديقاتي لتحكي أمرًا ما، أجد نفسي لا طاقة لي لحديث الفتيات الممل، فألجأ إلى حيلة لأقلب المكالمة لصالحي، فيكون مسار الحديث (أنا) فعلت وشعرت وتركت وأحببت وسافرت وحلمت وكأني محور الكون وكل العالم يلتف حولي، لأجد نفسي أتساءل بعد المكالمة «لماذا اتصلت بي من البداية؟» أو إذا ألهمني الله أن أنهي كلامي في آخر المكالمة بجملة «احكي لي آخر أخبارك» فتبدأ المسكينة باللعثمة بالطبع بعد أن أنساها حديثي لماذا اتصلت من البداية».

10) هجر قضايا الأمة

من أهم وأبرز تجليات النزعة الفردانية هي الإعراض عن قضية جماعية تخص عموم الأمة الإسلامية في مقابل الالتفاف حول قضايا شخصية، فالفرد المتمحور حول ذاته يعنيه الاهتمام بالصحة النفسية والعلاقات الشخصية والمشاعر الذاتية ولا يهتم كثيرًا بالقضية الفلسطينية أو قضية العدالة الاجتماعية أو الثورة على الطبقة الرأسمالية.

وهذا هو أكبر ملمح أشار إليه الشباب في الاستبيان. كما يخبرنا شاب مصري: «نعم لاحظت في نفسي مظاهر الفردانية، فأنا لم أعد أهتم بأحوال المسلمين وما يحدث

لهم ولا أعرف ما الذي يدور في البلدان الإسلامية من صراعات وأحداث، أنا منكب فقط على مفاهيم (العمل) و(إثبات النفس) وأهداف الحياة المهنية Career-Life Goals، وأعد الحديث في مثل هذه الأمور الجماعية نوعًا من التفاهات وتضييع الوقت».

ويؤكد شاب مغربي أن الأمة صارت مفهوماً هلاميًا لا يؤمن به كثير من الشباب، فيقول: «رأيت فيمن حولي من الشباب سيادة التعامل العاطفي مع قضايا الأمة وعلى أنها تخص فقط من هم معنيون بها كإخواننا في سوريا وكشمير وتركستان، وليس أن الأمر يعنيني أنا شخصيًا بصفتي مسلمًا وأن ذاك أخي وما يضره يضرني».

ويضيف هذا الشاب فيما أكدناه في النقطة السابقة: «لا أستمتع بالكلام مع الناس عمومًا، لكن لاحظت أني من الممكن أن أجلس مع أحدهم فترة طويلة أتحدث معه طالما كنت محور الحديث».

وبالعودة إلى هجران القضايا الجماعية، تشكو لنا طالبة سورية من انغلاق الشباب حول أنفسهم قائلة: «في ظل وجود حرب وأزمات من كل المستويات يشغلني وآلاف الطلاب، بالأخص طلبة الطب، التخرج والسفر وترك كل شيء وراءنا.. يسود بيننا اعتقاد بعدم القدرة على إنكار أي منكر وعدم اعتبار الأمر مشكلة طالما أننا لسنا منخرطين.. ومجرد الحديث عن الأمة يصبح الشخص محط سخرية ويعد الكلام طفوليًا حتى لو كان مجرد طرح تساؤلات أو نقاش».

كما يخبرنا طالب مصري: «التقديس الهائل لمنطقة الأمان الشخصية (النفسية والجسدية)، في الماضي.. الآلاف بل الملايين كانوا مستعدين ليضحوا بحياتهم كاملة في سبيل فكرة أو هدف عام لأن أولويتهم هي الصالح العام المفترض، وكانوا يرون أن حياتهم لا تساوي شيئاً أمامها، حاليًا الفرد لا أقول إنه غير مستعد للتضحية بحياته، بل هو غير مستعد يجرح مشاعره حتى في سبيل أي فكرة أو صالح عام. الأمان الزائف الذي نشعر به جراء التقوقع هو أسوأ مظاهر الفردانية».

11) نمط التدين الفردي

تركت التحولات الحاصلة في نمط التدين إلى آخر الفصل لأهميتها ورغبتي في التفصيل فيها، إذ أعيد تعريف مفهوم التدين ذاته في السنوات الأخيرة ليتوافق مع النزعة الفردانية الصاعدة، لقد صار الإنسان المتدين مختلفاً في يومنا هذا عن الإنسان المتدين عما قبل، فما خصائص هذا النمط الجديد من التدين الفرداني؟

يقول صاحب مدونة المنفى: «يُقصَد بالتدّين التقليديّ، ذلك الذي يتبع قِيَم الدين بصيغته العموميّة والشعائر والطقوس التي يمارسها أفراد المجتمع، وهو نمط مرتبط غالبًا بمذهب أو طائفة أو اتّجاه واضح وعام يتبنّى مجموعة سرديات كُبرى عن الدنيا والآخرة.

أمّا التدّين الفرداني، فيتبنّى فيه الفرد معتقدات خاصّة، قد تكون مُشتقّة أو مُطوّرة عن التدّين التقليديّ، ينتقي فيها الفرد شعائر مُحدّدة يعتقد بصوابها وفائدتها، ويرفض بعضها معتقدًا بخطئها أو ضررها. والفرد بالتالي لا يتبع مذهبًا وغالبًا ما يهتمّ بالممارسات الروحية والوجدانية أكثر من ارتباطه بسرديات الدين التقليديّ الكُبرى»(84).

واستكمالًا لهذا التعريف نقول إن الخاصية الأساسية والمركزية لنمط تدين الشباب الفردي هو الاستقلال عن أي تراث أو شيخ، والسعي نحو التأويل الشخصي للنصوص الدينية عبر الانطباع والذوق الشخصي والفهم الذاتي، بحيث يحاول الفرد دائمًا تشكيل نظرته الخاصة للدين بعيدًا عن أي أحكام سُجلت في المدونات الفقهية أو تقريرات نقلها العلماء والأصوليون وعلماء الحديث.

وبسبب شيوع هذا النمط الجديد نُزعت القداسة عن الالتزام التنظيمي، بحيث أصبح الشاب المتدين أو الفتاة المتدينة نائية بنفسها عن الانتماءات الأيدولوجية والالتزامات التنظيمية، وأصبحت المبادئ التي تؤمن بها التنظيمات نسبية لا مطلقة فضلًا عن كونها بالية ومنتهية الصلاحية جراء تآكل مصداقية التنظيمات الإسلامية عند الشباب(85).

وكذلك خُفف الدين من نزعته النضالية، فأن تكون متدينًا لم يعد أن تكون صاحب قضية تفني عمرك في سبيلها، بل أن تكون إنسانًا سمحًا لطيفاً طبيعيًا في يومك وحياتك. لقد صار التخلي عن القضايا الكبرى ذكاءً لا استسلامًا، وأضحى الانكفاء على الذات حكمةً لا هروبًا.

وفي مقابل تآكل الجانب الكفاحي في الإسلام والتخلي عن المشاريع والطموحات الكبرى، تتردد كلمات مفتاحية جديدة في الحالة الإسلامية مثل تحقيق الشغف الذاتي وتطوير المهارات الشخصية، فلا يعيش المتدين الفرداني في أجواء الحرب الدائرة على العقيدة الإسلامية ولا يشعر بخطر من حوله، فلا ينبري دفاعاً عن الدين والسنة ودعوةً إلى الله تعالى لأن الحماسة عنده منطفئة ابتداءً.

كما يغلب على التدين الفردي التسامح وقبول الآخر والتخلي عن المحكمات الدينية والصلابة العقدية للدين، فالتذوق الشخصي والفهم الشخصي للدين هو الحاكم لاختيارات الشخص، مما يجعل فرديته مماثلة لفردية الآخر، ومن ثم فما يصلح لهذا الشخص هو اختياره وما يصلح لشخص آخر هو اختياره كذلك، وكلاهما وجهان لدين واحد يسع الجميع بلا استثناء، حسبما يرى الفردانيون(86).

التدين في الجامعات

بجانب الاستبيان الأساسي لهذا الكتاب، أجريت استبياناً آخر مع 381 طالبًا في جامعات مصرية، وسألتهم عن تصورهم للتدين داخل الجامعات، وكيف يتفاعل المتدينون مع الأنشطة الطلابية ومع أقرانهم من الطلاب.

أكد أكثر من 90 % من الشباب الذين سُئلوا أنه لم يعد هناك أي نمط مميز لتدين الطلاب في الساحات الجامعية، فقد انحصرت مظاهر التدين بالنسبة لهؤلاء الطلاب في أمرين أساسيين: الصلاة في مسجد الكلية، وارتداء النقاب للطالبات. فما الذي يعكسه هذا الأمر؟

لقد بات الطلاب يعدّون مَن يصلي في مسجد الكلية أو الجامعة هو شخص

متدين، فالطالب المتدين لم يعد هو الذي يتحرك في نشاط ديني أو يقيم فاعلية جماعية من أجل مناصرة قضية إسلامية أو حتى يعفي لحيته أو يمشي بالسواك والقرآن في جيبه أو يشارك في المظاهرات والأنشطة العامة، بل صار الطالب المصلي في المسجد فحسب هو من يستحق أن يوصف بالمتدين.

ولهذا السبب لم يعد بإمكان الطلاب التفريق بين المتدينين وغير المتدينين، لعدم وجود أي مظاهر تدل على تدين الشخص في تعامله مع المجتمع الطلابي سوى صلاته في المسجد، وهو الأمر الذي لا يُلاحظ بسهولة في المجتمع الطلابي.

وعلى سبيل المثال يقول أحد الطلاب بجامعة المنوفية: «التدين الآن فى الجامعة متمثل فقط بدخول مسجد الجامعة، أما خارج المسجد فلا يوجد أي مظهر من مظاهر التدين».

ومن الملاحظ أن هؤلاء الطلاب «المتدينين» يشاركون في الأنشطة الطلابية بما يصحبها من اختلاط مع الفتيات وموسيقى بشكل عادي تمامًا، لا ينكرون منكرًا ولا يعرفون معروفاً، ولا يمتد تدينهم لأبعد من صلاة الفريضة في المسجد، كما تقول إحدى الطالبات بجامعة القاهرة: «هناك طالب يصلي لكن منفتح على البنات ويدخن، وطالب يصلي لكن يشارك مع البنات في حفلات في شكل ستيودنت أكتيفيتيز [الاسم الدارج للأنشطة الطلابية]».

ويعزز أحد الطلاب هذه الشهادة قائلًا: «أغلب مَن هو موجود من البنات هن من النمط الذي لا يعرف من الدين سوى صلاة الفرض، فيحافظ عليها قدر استطاعته فحسب، فلا هي ملتزمة بزي شرعي ولا تعرف ضوابط الاختلاط ولا ألف باء فقه».

ومن اللافت أن ثمة تبريرات قدمها بعض الطلبة لهذا التدين الفرداني الذي لا يتجاوز إطار الشعائر الشخصية، أي أن بعض الطلبة واعٍ بهذا التحول، حيث ذكروا أن العامل الأساسي في شيوع هذا النمط الفردي من التدين هو غياب أنماط التدين الجماعية.

يقول لنا أحد الطلاب بجامعة السويس: «القليل ممن يلتزمون بالصلاة لا يعرفون شيئًا عن أنماط التدين التقليدية ومظاهره.. نحن مواليد 2000م و1999م و2001م، فأغلبنا لم يعاصر أحداث ما بعد الثورة بالوعي الكافي حتى يتنمط بنمط تدين ما.. أغلبيتنا يتدين تدينًا وسطيًا لا يعرف من الدين إلا الصلاة.. وبعض ممن أعرفهم يصلون معنا ثم يرجعون إلى البيت فيضيعون فرائض أخرى، كما لا يعلمون كيفية التيمم أو أحكام الجماعة والإمامة إلخ».

وقد أكدت إحدى الطالبات بجامعة الأسكندرية أن فئة المتدينين ذوي الاتجاهات السياسية أو الالتزامات التنظيمية تتضاءل باستمرار؛ لتندمج مع حالة اللا تدين الموجودة في عموم الجامعات، فتقول موضحة: «كان هناك أنماط للتدين فى السنوات الأولى من أكثر الناس التزامًا، وكانو يقيمون جروبات لشرح العقيدة -مثلًا-، أما الآن فهم عكس ذلك تمامًا وحلقوا اللحية ويحضرون حفلات الكلية المختلطة بأريحية».

التدين الفردي لبعض المؤثرين

لا يقتصر التحول من الجماعية إلى الفردانية على تدين الشباب فحسب وإنما يمتد ليشمل بعض المشايخ والمؤثرين كلك ممن كانوا يتمذهبون بنمط جماعي للتدين ثم تحولوا إلى النمط الفرداني في الآونة الأخيرة.

ففي ورقته «إسلاميو الإنفلونسرز: تشكيل علاقة الفرد بالدين» يرصد المهندس محمد فتوح هذه التحولات، ويقول إن المؤثرين يخلطون بين مفاهيم مثل الترفيه والبيزنس والبرامج العلمية والمهارات الحياتية، بالإضافة إلى تجارب السفر والتجوال وتعظيم النزعة الاستهلاكية وقيم النجاح العملي الفردي، كل ذلك في إطار ديني يصور النجاح والإنجاز كأحد مقومات الدين الإسلامي(87).

وفي هذا السياق يمكننا النظر إلى مجموعة من المشايخ يتوزعون بين مصر والسعودية ولا يزالون ناشطين إلى يومنا هذا، كانوا يمثلون قبل 2017م النمط التقليدي للتدين، إذ كانت مقالاتهما ومقاطعهما المصورة قديمًا تدور حول قيم

دينية جامعة وقضايا إسلامية وفكرية كبرى، مثل نقد العلمانية، والعقيدة، والرد على الشبهات، والإصلاح السياسي، والحركات الإسلامية، ومقارنة الأديان، والملف الشيعي، وشرح التراث الإسلامي، ونحو ذلك.

كان هؤلاء المشايخ يستحضرون دائمًا نَفَسًا نضاليًا في خطابهم، حيث يعيشون أجواء الحرب على الإسلام، ويعدون أنفسهم في معركة الدفاع عن العقيدة والسنة، يعقدون المناظرات ويؤلفون الكتب ويصورون المقاطع من أجل مواجهة موجة التغريب والعلمانية بالعقيدة الإسلامية الصحيحة.

ثم في نقطة زمنية ما خلع هؤلاء الشيوخ جلبابهم، بالمعنى الحرفي للكلمة وليس المجازي، وإذا نظرنا إليهم الآن في 2021م فسنجد أن دفة خطابهم قد تحولت من الخطاب الشرعي إلى الخطاب التنموي الذاتي، فصاروا يتحدثون عن العلاقات الإنسانية والزواج والفرق بين الرجل والمرأة، وكيف تكون صاحب جاذبية ومتحدثًا لبقًا، وطرق إدارة المشاعر وتنظيم الوقت، وخطوات تطوير المهارات الشخصية والقدرات الذهنية والنفسية، نحو ذلك.

وعوضًا عن النفس النضالي فقد أضحى عندهما نفسًا تنمويًا، حيث لا معركة سوى معركة النفس ولا نضال سوى نضال الذات، وكل ما هو خارج عن ذاتك فلا يشغلك لأنه هامشي بالنسبة لمعركة تطوير مهاراتك وتنمية تفكيرك.

تحول الدين إذن - على يد هؤلاء المشايخ - إلى مجموعة من الأخلاقيات والشعائر التي لا تتجاوز دائرة الذات، ويضيّق فاعلية الدين ويحصرها في نطاق البيت، كما أنه يثبط الهمة الرسالية لعموم الشباب ويعزز الانهزامية أمام الواقع والاستسلام أمام الحركات والأنظمة التي تحارب الدين، بدعوى التفرغ لمحاربة قلة الثقة بالنفس وفقدان المهارات الحياتية، وهو ما يشكل أثرًا واضحًا للنزعة الفردانية في نفوس هؤلاء المشايخ ومن يستجيب لهم.

وأختم هذا الفصل بهذه الكلمات المهمة التي أعدّها أحد الباحثين في ورقة معنونة بـ(الإسلاميون والحداثة: الخطاب الفرداني نموذجًا) والتي رصد فيها خطورة هذا

النمط من التدين الذاتي، فقال: «في الآونة الأخيرة ينتشر خطاب إسلامي جديد يقوم على الإعلاء من شأن ما هو (فردي) و(خاص)، مقابل تهميش ما هو (سياسي) و(عام)، ويدندن هذا الخطاب حول نقد التنظيمات الإسلامية الكبرى، والتبشير بعصر الما بعديات.

هذا النمط من الخطاب يبدو أقلّ نضالية، دون أن يكون له قيادة أو حتى مطالب، لكن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الخطاب هي (الفردانية)، ولا يخفى على أحدٍ أن من أهم ركائز الفلسفة الليبرالية هي الفردانية، أي بناء الذات كمركز للوجود، ثم إعادة ترسيم العلاقة بين المجال الخاص والمجال العام لتكون الأولوية للشأن الخاص دون الشأن العام، بل تصل درجة التمحور حول الذات إلى حدّ أنّ المجال الخاص للفرد يصبح هو نقطة الانطلاق لتحديد ما هو (عام) أصلًا.

وبناءً على تبنّي هذا المبدأ الحداثي -بامتياز- في الخطاب الإسلامي الرائج الآن (والمتفهّم في واقع شدت فيه جميع آفاق العمل العام) تغيب مصطلحات (السياسة) و(الأمة) و(الجهاد) مقابل الإكثار من مصطلحات (التميز الفردي) و(النجاح الشخصي) و(تحقيق الذات)، ويكثر الحديث حول مسائل الزواج والتعليم والبيت المسلم مقابل تقزيم مساحة الحديث عن النضال والمقاومة والحكم الإسلامي.

هل معنى ذلك أننا نعادي هذه المفردات (الزواج والتعليم ونحو ذلك)؟ بالتأكيد لا، ومعلومٌ أنه أحيانًا يصل الحكم الشرعي في المسائل هذه إلى الوجوب العيني، لكن العيوب الرئيسية في هذا الخطاب -برأيي- هي ثلاثة:

أولًا: أنه يعطي مساحات (الخاص) أكبر من حجمها بكثير، يصل بها الحدّ إلى افتعال معارك وهمية على وسائل التواصل الاجتماعي غير متحقّقة أصلًا في الواقع، وحتى لو افترضنا تحقّقها فإنّ هذه القضايا لو قورنت بمشاكل الأمّة الإسلامية الحقيقية لوجدنا أنها غاية في الهامشية، ولكن بما أن الذات هي المعرّف لما هو (عام) فإن هذه المعارك تصبح مهمة ومصيرية وتقام عليها معاقد الولاء والبراء، لا لشيء إلّا لأنّ الذات هي التي حدّدت أنّ هذه القضية قضية، لا لأنّ الواقع فرضها

بالفعل.

العيب الثاني هو أنّ هذا الخطاب يزيل أي عبء نفسي تجاه قضايا الأمّة الحقيقية، ويحرّر المسلم من تبعات الانشغال بالأحداث والتفاعل مع (السياسي) و(الأممي)، فطبقًا لهذا الخطاب يكفي المسلم أن يكون متفوقًا، رائدًا، منظمًا لحياته، وكلّما كانت مساحة (الخاص) أكثر تميّزًا لديه، كان المسلم أكثر فلاحًا، دون تحمّل أية هموم تتجاوز همومه الذاتية.

أمّا العيب الثالث فهو المآلات - شبه الحتمية- لهذا الخطاب، فهو وإن كان فيه تقاطعات مع ما أؤمن به من تصوّرات خصوصًا في المساحة المرحلية الآن، إلّا أنّ انهزامية الخطاب أمام الواقع هي - برأيي- أخطر عيوبه على الإطلاق، بمعنى: أنّ هذا الخطاب يرضخ تحت ضغط النظم الحاكمة فيكتفي بالهوامش المتاحة من قبل هذه النظم نفسها ولا يتعدّى الحدود القانونية المرسومة له ولا يدعو إلى تجاوزها، والمشكل أنّه لا يعبّر عن هذا الانهزام كاستثناء بل يبرّره ويؤطره في قالب فكري/ شرعي لإخراجه كأصل يجب على الناس الالتزام به ناهيك عن الدعوة إليه، ما يؤدي إلى غياب أية مفردات نضالية في هذا الخطاب تدفع في سبيل تثوير الجماهير أو حشدها من أجل التحرّر من النظم الطاغوتية.

وعليه فالمتتالية المنطقية لهذا الخطاب هو تدجين الناس عبيدًا للنظم، وتخدير الأمة كليًا وقتل فاعليتها في التاريخ تمامًا بدعوى حفظ النفس وغياب أية رؤية واضحة للثورات وفشل النشاطات التغييرية المعاصرة، إلى آخر تلك الدعاوي التي هي حقّ يراد بها باطل، إذ أنّ فشل النشاط التغييري وغياب الرؤى ومخططات العمل نعم هي عيوب نمتلك الشجاعة للاعتراف بها(88)، لكن هذه السلبيات تدفع الباحث المتجرّد إلى تصدير خطاب يوجّه الناس نحو صناعة البدائل والبحث في الاستراتيجيات وعلوم المستقبليات والبرمجة والتخطيط الاستراتيجي والاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد وغير ذلك لكي ندرس أسباب الفشل ومقوّمات النجاح وأبعاد المعركة، أمّا تسكين الأمّة بمسكّنات الزواج والحب والارتباط أو

التخصص الفردي والتفوّق العلمي ونحو ذلك، وتهميش المسألة السياسية وسؤال السلطة والدولة وتأخير الحديث فيها إلى ما لا نهاية، في شكل من أشكال (الإرجاء السياسي)(89) = فهذا أعده من جنس الخيانة»(90).

***

الفصل الخامس: محركات

سنبدأ هذا الفصل بقصة تحكيها لنا طبيبة شابة مصرية، أنقلها -على طولها- إلى القارئ والقارئة الكريمين من أجل نقل التصور الغالب لدى العديد من الشباب فيما يخص تصاعد ظاهرة الفردانية مؤخرًا، تقول الشابة: «منذ نحو سنة تقريبًا كنت متمحورة حول هذه القيم الجماعية، أتابع الأحداث السياسية وبداخلي حماس للحرية والمساواة والناس ونحو ذلك..

ثم حصل عدة مواقف أشعرتني أني إذا كنت في مكانهم فلن أجد نفس الشعور المتبادل، كما أن تأثيري اكتشفت أنه يكاد يكون منعدمًا، لا أقول إن كل هذا لم يعد يهمني البتة أو إني لا أتمنى ما كنت أتمنى لهم من كرامة وحرية، لكني توقفت عن المتابعة ولم أعد أتأثر البتة.

أحد الأمثلة الواضحة على ذلك في حدود أسرتي أنْ مرت علي فترة كان شغلي الشاغل فيها أن أصلح المشاكل بين والدي ووالدتي وأجعل بيتنا عامةً أحسن، فوجدت أن أصحاب المشكلة نفسهما غير مهتمين بحلها قدر اهتمامي شخصيًا، وعندما كانت تحدث لي مشكلة لم أجد منهما تفهمًا أو محاولة لإصلاحها أو حتى دعمي نفسيًا خلالها، بالإضافة إلى ذلك كان تأثيري ضعيفاً لأني أصغر بنت في البيت فلم يعتد أحد بكلامي.

فتساءلت داخل نفسي: لماذا تكون هذه أولوياتي؟ فاقد الشيء لا يعطيه، عندما أصلح حياتي أولًا سأفكر حينذاك «أحرق بنزين» في إصلاح حياة المحيطين بي، ولأن للأسف إصلاح حياتنا يبدو أنه طريق طويلة جدًا جدًا، أكاد أجزم -بطريقة واقعية ليست تشاؤمية- أنها ستستغرق إلى آخر نَفَس في حياتي، فلا أستطيع الحقيقة أن أتوقع بناء على هذا احتمال أني أهتم بمشاكل الآخرين مرة آخرى مستقبلًا.

وحتى إن اهتممت فلا أعتقد أنه سيكون تمحورًا، وإن كان تمحورًا فلا أعتقد أن

الدائرة ستتسع، مثال آخر، موضوع مسلمي الإيجور مثلًا سمعت عنه من بعيد فلم أرض أن أتابع، حتى لم أتابع الكلام النظري على الموضوع، لم أدع الموضوع يؤثر فيّ كثيرًا، وحتى وباء كوفيد-19 كورونا المستجد لم أهتم به كثيرًا، حتى عندما كان الناس يرون أن هذا الوباء كان عقابًا من الله للصين ونصرًا لنا كمسلمين لم أكن مهتمة، لكن في اللحظة التي بدأ الوباء فيها في الانتشار هنا ويقرب مني وجدت نفسي أتابع بشدة وأخاف على أهلي».

وتختم الفتاة حديثها قائلة: «نعم ألاحظ التعمق في حياتي الشخصية جدًا، لأنه لم يعلمني أحد أن أهتم وأصلح في نفسي وأنميها، فيمكنني إذن أن أقول إن أول 18 عامًا من حياتي كانوا «تِيهًا»، ثم بدأت أفكر في عمري وشبابي ومستقبلي، فحياتك لها معنى وقيمة ولن يعطي أحد لها أهمية لو أنت لم تهتم بها.

نعم أدرك أن الالتزام بالدين له مسؤوليات كذلك تجاه من حولك، في بر الوالدين، والجار، ..إلخ، لكني أحاول فعل ذلك وأجده فعلا أمرًا في منتهى الصعوبة.. مثلاً عندما بدأت أطلب العلم الشرعي وبدأت أحفظ القرآن بجانب دراسة الكلية وجدت أني أقصر في مساعدة أمي في شغل البيت، فمحاولة أني أوفق بين الاهتمام بالنفس والاهتمام بالغير هذه أيضًا معضلة».

هذه القصة الموجزة للفتاة المصرية تكررت بحذافيرها مع أكثر من 50 % من الشباب والفتيات الذين أجري الاستبيان عليهم، ففيما يلي نستعرض الأسباب التي أدت بالشباب إلى النزوع نحو الفردانية، طبقاً للاستبيان الذي أجريناه كما ذكرنا في المقدمة، بالإضافة إلى استبيان آخر أجراه الباحث الأمريكي جون ألترمان في المنطقة العربية عام 2019م.

1) الهجرة من الريف إلى المدينة

تفرض حركة الهجرة من الريف إلى المدينة انعزالًا للشخص عن جيرانه الحضريين، كما تفصله عن روابطه الأسرية القديمة، فلا يتبقى في حياته روابط جماعية تقريبًا يعتمد عليها. فحركة التمدن تدفع الفرد إلى الاستقلالية عن شبكاته الاجتماعية

العائلية والتقليدية لتخلق في المقابل فرصًا للنجاح الفردي المستقل عن أي تأثير جماعي.

وبالنظر إلى الأرقام فإننا سنجد ارتفاعًا تصاعديًا في نسبة المهاجرين من الريف إلى المدينة منذ الخمسينات، فعلى سبيل المثال: عاش 80 % من سكان المملكة السعودية في المناطق البدوية عام 1950م، وبحلول عام 2020م كانت النسبة قد انخفضت إلى 20 % فقط.

أما في الأردن فقد كان 51 % من مواطنيها من سكان الحضر ثم ارتفعت هذه النسبة إلى 91 % في 2017م. وفي تونس، خلال نفس الفترة، فقد صارت نسبة سكان المدن 70 % بعدما كانوا 40 % فقط. كما أخرج البنك الدولي إحصائية تفيد بأن سكان المدن تضاعفوا 4 أضعاف في غضون 40 عامًا بين 1977م و2017م(91).

هنا يرى ابن خلدون أن الانتقال من البداوة إلى الحضارة هو بالضرورة انتقال من الخشونة إلى الترف ومن مجتمع شظف العيش والحرمان الذي هو أساس التضامن من أجل البقاء إلى مجتمع تطغى عليه صفة الفردانية والنزوع نحو الجاه والمال، لذا فإنه يرى أن «أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر»(92).

تمثل هذه النزعات والسباق المعاصر نحو الترقي المهني والأمان المادي في المدينة اتجاهاً فردانيًا خالصًا يطرح فيه الناس انتماءاتهم التقليدية وراء ظهورهم، ولا يسعون إلا لتحصيل لقمة العيش في المجتمع الحضري، وبحسب المختار الهراس فإن الهجرة من الريف أو البدو إلى المدينة «هو انتقال من المصلحة المشتركة الى النزعة الفردية»(93).

يخبرنا أحد الشباب المصري: «عندما كنت أسكن بالريف كان الجميع يعرف الجميع، ومن شدة ثقتنا بلغ بنا المقام إلى أن القرية كانت لا تغلق بيوتها نهارًا أو ليلًا، فالجميع آمن والجميع حريص على جاره كما يحرص على نفسه، يخرج العامل أو

الفلاح ليكسب لقمة عيشه ويقضي أطفال القرية جميعًا أوقاتهم في اللعب والتنزه سويًا أو عند الكتّاب، كما تتردد الزيارات والضيوف دائمًا داخل البيوت.

ومع زواجي مؤخرًا انتقلت إلى المدينة التي أقطن بها حاليًا لأعزف عن الأعراف الاجتماعية الثقيلة الموجودة في قريتي، هنا لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني، الجميع يعيش من أجل نفسه وفقط، منشغلاً بحياته الشخصية ولا أعرف اسم حتى من يجاورونني السكن. أحياناً أشعر بالحنين لقريتي رغم ما فيها من مساوئ، فلم أتعود على هذه الفردانية في أي فترة من حياتي».

2) انسداد آفاق التغيير وسد سبل الإصلاح

يتجه الشباب إلى التمحور حول ذاتهم في حال غياب أفق للتغيير المجتمعي. ومع شيوع حالة من الإحباط والسلبية بين الشباب العربي فإن الشاب يجد أنه فقد السيطرة تمامًا على واقعه، وإذا نظر حوله وجد جميع الآفاق مسدودة وكافة السبل محاصرة، وكل شيء مراقب وتقف له السلطة بالمرصاد، فلا يبقى إلا مشاعره وأفكاره وجسده ليجري عليهم التغيير، فيكتفي بتغيير حياته الشخصية ويعرض عن التغيير المجتمعي الواسع.

ويؤكد الباحث الأمريكي إريك ليو أن الشباب «عندما يجدون أن العمل السياسي قد خُصص لصالح طبقة معينة من الناس ورجال الأعمال وأصحاب الثروات والشركات الكبرى، فإنهم يشعرون بأنهم فاشلون في هذا الاتجاه، وينسحبون من المجال العام بالكلية، ليتجهوا إلى حياتهم الخاصة»(94).

وبحسب شاب مصري: «أعتقد أني لو سأتكلم عن شخصيتي فإن الكلام عن التغيير والثورة ونحو ذلك مرتبط بالأمل، أي أنه عندما يزيد في العموم تزيد فكرة الثقافة العامة ومصلحة المجتمع ككل، وعندما يقل الأمل تبدأ أفكار الأنا والخطط التي تشمل كيف سأنجو أنا من هذا المجتمع الذي فقدنا فيه الأمل تمامًا».

وتذكر لنا فتاة تونسية: «بحكم انتمائي للثورة تماهيت معها بالكلية ونسيت ذاتي

تمامًا، لقد حان الوقت الآن للاهتمام بالنفس وتطوير الذات، وتحصيل أكبر قدر من المهارات الممكنة، لتعويض كل ما فات».

وتفضل فتاة مصرية ما سبق قائلة: «أثناء ثورة يناير وما تلاها من أحداث كنت أصل لدرجة إهمال دراستي من أجل متابعة الأحداث العامة والاشتراك بالمظاهرات وغير ذلك، وكان هذا يثير المشاكل مع أهلي، ثم ما تلا الثورة وفي فترة الحكم الحالى تعمّق بداخلى شعور أنى لا أقدر على شيء وأني لن أشكّل فرقاً وأن الأمور ستسوء والظلم سيزداد، فبدأت لا أهتم سوى بنفسي ودائرة معارفى القريبة فقط، فهل هذه فردانية أم نضج؟ الحقيقة لا أعلم».

ونفس الأمر يحكيه شاب مصري آخر قائلًا: «منذ الصغر وتحديدًا بعد ثورة يناير كان يلازمني شعور أنني مسئول دومًا عن إصلاح المجتمع سواء على مستوى الأفكار أو على المستوى المادي، كمن كثير المشاركة في العمل الخيري والعمل العام وأداوم على النقاشات والصالونات الثقافية والحوارات الشبابية حول المستقبل وكيف نجعل المستقبل أفضل والتعليم أفضل.

لكن في أواخر الأعوام الجامعية بدأ يتسرب بداخلي شعور أنه لا يوجد أمل، وعليك نفسك واحذر لكي لا تفتن أو ربما تتعرض لظلم.. بالإضافة إلى ذلك وجدت أن دائرة الأصدقاء المحيطة بي قد انصرف فيها الناس كلٌ إلى دراسته أو للعمل وللسفر بالخارج فأصبحت اجتماعاتنا ونقاشاتنا في أمور تافهة، وكلما هممت بالحديث عن أمر عام كان الرد (لا توجد فائدة، هذا شعب لا يستاهل).

أصبحت اللهجة السائدة هي: ركز في دراستك وفي شغلك وفي تأمين مستوى معيشي جيد وفقط، لأنه (مفيش فايدة) ومساحة التغيير ضئيلة، ومن فوقك هم من يحددون تلك المساحة، والمجتمع لا يستجيب وربما تعرضت لظلم شديد، ربما تتخلص قناعتي في جملة: الثائر لأجل مجتمع جاهل هو أحمق أضرم النيران بجسده كي يضيء الطريق لضرير».

وهذا الأمر هو نفسه ما حدث مع جين فوندا، التي عرضنا تجربتها في الفصل

الثالث، حينما انسدت أمامها السبل، فآثرت تغيير جسمها على تغيير العالم.

3) إفلاس الشعارات

تكررت هذه النقطة كثيرًا في إجابات الشباب عن دوافعهم للفردانية، ففي لحظة من اللحظات كان الإيمان بالمشروع الإسلامي عميقاً للغاية في نفوس الشباب، وتفاؤلهم بمقدرة الإسلاميين على الإصلاح شديد، لكن ما لبثت أن تحطمت هذه الأحلام وتشرذمت الجماعات الإسلامية وأفلست أفكارها، فأصبح الإيمان بالخلاص الفردي أهم من الخلاص الجماعي، وتحول الشباب من الإيمان بالشعارات إلى الإيمان بالذات.

فالجماعات التي كانت ترفع شعارات (الإسلام هو الحل) و(تطبيق الشريعة) و(عودة الخلافة) لم تلبث أن انهزمت في تجربتها الواقعية في السلطة، وسقطت هذه الشعارات في وحل الخلافات السياسية والإخفاقات العسكرية والانهزام الكامل للإسلاميين في السنوات الأخيرة أمام تعقيدات الواقع الحقيقي بعيدًا عن النضال الاجتماعي الذي يتطلب أبجديات مختلفة تمامًا عن أبجديات العمل السلطوي والممارسة السياسية، فأضحى المتمسك بهذه الشعارات مؤمناً بأنه لم يكن يؤمن بأكثر من سراب خافت قد تبدد تمامًا بمجرد اقترابه منه.

وقد قاست دراسة MENA ثقة العرب في الحركات الإسلامية، فانخفضت مثلًا ثقة المصريين في الإخوان المسلمين من 44 % عام 2011م إلى 17 % في 2019م، وفي الأردن انخفضت من 35 % عام 2012م إلى 14 % في 2019م، وفي تونس من 40 % عام 2011م إلى 15 % اليوم(95).

يحكي لنا طالب تونسي: «مع الانتصارات التي حققها الربيع العربي وتولي الإسلاميين مقاليد الحكم وُضعت شعاراتهم تحت محك الاختبار، لم تكن البرامج العملية النظرية مفيدة قدر ما توقعت، وعانى الإسلاميون من خيبات فجة حتى انتهى الحال بالحركة الإسلامية في تونس إلى إعلانها كونها حركة علمانية لا تختلف في جوهرها كثيرًا عن التيارات العلمانية الموجودة على الساحة. فأي هوية يدعيها

الإسلاميون إذن؟».

وفي المقابل يخبرنا طالب مصري: «ظلت الجماعات الإسلامية تربي نشئها لعشرات الأعوام وكانت حماستنا متقدة من أجل تحرير القدس من الاحتلال الصهيوني، وفي لحظة الثورة برز نجم الأمل وجاء الوقت لتحقيق كل ما تمنيناه وظللنا عشرات السنوات منتظرين هذه اللحظة. لكن خيبة أملنا كانت مفجعة. لم تتجاوز شعاراتهم حناجر من يهتفون بها، وفي التجربة العملية فشلوا فشلًا ذريعًا في إدارة الدنيا، وكل الأحلام التي رسمناها صغارًا تلاشت في سنة واحدة. وكلما كنت أتحدث مع أحدهم كنت أجد إفلاسًا رهيبًا في رؤيتهم للأمور وإدارتهم للحكم. لا أدري حتى الآن كيف أوصف خيبة الأمل التي عانيناها بسبب ما حدث. فقدث الأمل في الإسلاميين وفي كل الشأن العام من أوله لآخره، فإذا كان أفضل من نعتقد فيهم الفكر والصلاح بهذا المستوى فكيف بغيرهم؟».

وعلى صعيد مماثل يحكي لنا شاب سعودي: «كنا ننظر بعين الإعجاب إلى الربيع العربي واستبشرت خيرًا بصعود الإسلاميين وآمنت أننا قاب قوسين أو أدنى من تطبيق الشريعة في بلداننا العربية، وبعد شهور معدودة اكتشفنا أن تطبيق الشريعة ليس على برنامج الحركات الإسلامية أصلًا، وأنهم كلما مر بهم الزمن ابتعدوا عن تطبيقها، صارت هناك ازدواجية ضخمة بين ما في كتب الإسلاميين وبين تجربتهم على أرض الواقع. استسلمت أمام هذا التناقض وفضلت الابتعاد عن المشهد السياسي تمامًا».

4) الشعور بالثقل وعدم الرضا بتحمل أخطاء الآخرين

يؤكد الباحث تشارلز تايلي أن الانضمام لجماعة أو عائلة ما يعني الحصول على عدد من المكاسب لكن على حساب خطر محتمل عليك نتيجة لأخطاء وإخفاقات الآخرين(96). وفي وقت من الأوقات كان الشاب العربي على استعداد لتحمل هذه التكلفة، وكان يبرر ويدافع عن عيوب الجماعة التي ينتمي إليها، في سبيل خدمة هدف أكبر منه هو شخصيًا.

لكن الشاب العربي حاليًا أصابه الضجر والملل، ولا أحد يريد أن يُحاسَب على خطأ إنسان آخر، لا سيما مع انتشار ثقافة الوصم وتعميم الأحكام والاستقطاب، ففضل الشباب العربي الانفصال عن الجماعات تمامًا، والعزوف عن تحمله المسؤولية لإخفاق شاب آخر، فمن ثمَّ اتجه إلى الاستقلالية في أفكاره وتحركاته، غير منشغل بأخطاء الآخرين.

هذا هو ما يؤكده لنا شاب تونسي قائلًا: «مع اندلاع الثورة انضممت إلى أحد الأحزاب الكبرى في تونس، كنت ناشطاً في الحزب وكدت أبلغ منصب أمين المحافظة، داومت على حضور الاجتماع ونزول الحملات والدعاية الإعلامية لهم عبر صفحات وسائل التواصل، كنت أتطوع كثيرًا من أجل الحزب. ومع دخول الحزب للبرلمان واستهلاكه في معترك السياسية، كثرت أخطاء الحزب وكنت مضطرًا في كل مرة أن أدافع عن خيارات الحزب أمام الجمهور.

وتغير الأمر بعد فترة إذ أنه مع مرور الوقت أصبحت أشعر بالوصم عندما ينظر إليّ المواطنون بصفتي عضوًا في الحزب لا بصفتي أنا فحسب، لقد ساءت سمعة الحزب لدى الشعب وأصبح الأعضاء وكأنهم أشرار منبوذون اجتماعيًا، لم أستطع أن أتحمل هذا الضغط دون عائد يذكر سوى التبرير المستمر والدفاع الدائم عن نفسي وعن الحزب، فألغيت عضويتي في نهاية المطاف من الحزب وأصبحت مستقلًا كي أتجنب الثقل النفسي الهائل من جراء كوني عضوًا أتحمل مسؤولية أخطاء غيري ثم أطالب بالدفاع عنها حتى لو كنت غير مقتنع بها».

ومن تجليات عدم الرضا بتحمل أخطاء الآخرين هو أن بعض الشباب والفتيات يصل بهم الحال أحياناً إلى العزوف عن فكرة الزواج والارتباط لا لشيء إلا للفردانية المفرطة التي يعتنقها الشاب أو الفتاة، فحتى أضيق الانتماءات الجماعية، وهي الزواج والارتباط بشريك الحياة، صارت عبئاً لا يقدر بعضهم على تحمله، فهو لا يريد من أحد أن يعكر صفو حياته ويتحمل مسؤوليته.

ويظهر ذلك مثلًا فيما تخبرنا به إحدى الفتيات المصريات وتقدم شرحًا وافيًا

لهذه النفسية قائلة: «السبب المباشر الذي يجعلني غير متقبلة لفكرة الزواج هو بكل صراحة الفردانية، يملؤني الخوف من وجود شريك عمومًا يحتل جزءًا كبيرًا من مساحتي الشخصية، فمعنى كلمة شريك أصلًا هي أن تشارك في كل شئ تفعله وواجب عليك أن تتكلم معه في أوقات فراغك وتشاركه حياتك واهتماماتك وأفكارك ووقتك.

أحس أني أحتاج وقتي هذا لنفسي وأخاف من فكرة المسؤولية نفسها التي تنهي حياتي لوحدي ولنفسي وتجبرني علي مشاركة نفسي مع شخص آخر. أحب أعيش مع نفسي وأقضي الوقت مع نفسي أو أفعل شيئاً مع نفسي، لكن وجود شخص في حياتك يفرض عليك التزامات معينة لأن له حقوقًا ولا بد أن تشاركه، فأنا أتردد كثيرًا بين القبول بهذا الوضع والمشاركة، أم البقاء على حياتي مع نفسي لأنها الأسعد بالنسبة إليّ.

وهذا التفكير ليس خاصًا بي فقط فأنا أعرف شريحة كبيرة أيضًا حولي وفي سني يعانون من نفس المشكلة، أي الخوف من الالتزام عمومًا ومن الارتباط والزواج خصوصًا، لأنها مسؤولية فهيا بنا نهرب حتى أتجنب كل هذه المسؤوليات والمشاكل في حين أنني يمكنني أعيش مع نفسي بالتزامات بسيطة، لماذا أعبأ بمسؤولية زوج وبيت وأهل ومناسبات اجتماعية وعيال، أنا مع نفسي أفضل.

طبعًا معترفة اعترافًا تامًا أن هذا خطأ لكني أيضاً غير قادرة على التخلص من فكرة حب الهروب من المسؤولية؛ لأني في اللحظة التي أجد نفسي فيها على أعتاب طريق الالتزام أهرب مباشرة».

5) الظروف الاقتصادية الطاحنة

طبقاً لدراسة MENA فقد صنف الشباب العربي أمانهم الاقتصادي بمستوى 5.5 من 10، تسببت الحروب الأهلية والاضطرابات التي ضربت عددًا من البلدان بعد الثورات العربية في تفاقم الخوف الاجتماعي وتشظي الطبقة الوسطى وظهور بوادر الانقسام فيها، ورأت الدراسة أن النيوليبرالية قلّصت آليات الحماية الاجتماعية

عبر فتح أسواق جديدة في الوطن العربي، وهو ما زاد من المخاوف الاقتصادية مع توسع حالات فقدان الأمل وغياب اليقين، والاضطراب السياسي الذي صاحب الثورات.(97)

هذه الحالة من عدم الأمان الاقتصادي تجعل كل إنسان مشغولًا بلقمة عيشه، متمركزًا حول نفقة عياله وأهله وحماية نفسه من الفقر، معرضًا عن تكاليف الانتماءات الجماعية وما تستلزمه من واجبات الضيافة والإكرام وقضاء الأوقات مع الجماعة. لذلك يرى الباحث جون ألترمان أن تأمين الشاب العربي لحاجياته الأساسية جعلته منصرفًا عن التكلفة المتوقعة من انضمامه إلى الروابط الجماعية(98).

بمعنى أن حضور مثلًا اجتماع لرابطة تشجيع (ألتراس) يتطلب تضييع الوقت في الحديث والسمر والجلوس في الغرف والمقاهي ونحو ذلك، في حين أن تكلفة الفرصة الضائعة تجعل الإنسان يفكر: ماذا لو استثمرت وقتي هذا في عملي أو في مشاهدة كورس تعليمي لجني مزيد من الأموال؟

وعلى جانب آخر فإن الارتباط الوثيق بالعائلة الممتدة يكلّف المرء حساب الضيافة والهدايا والمناسبات وغير ذلك من التزامات مكلفة ماليًا، وهو أمر يعزف عنه الشباب لقلة ذات اليد في هذه الأوقات.

هذه الثقافة لا تؤثر في نزوع الشاب للانتماء الجماعي فحسب بل تقلص رغبته في العمل التطوعي كذلك، فمزيد من الوقت المتاح للإنسان يعني مزيدًا من الربح، أما العمل التطوعي فلا يدر ربحًا ماديًا يُذكر ومن ثَم يتجه الناس إلى الإعراض عنه. لذا فقد لاحظت إحدى الهيئات السعودية التطوعية أنه عقب فرض ضرائب جديدة على الدخل في 2017م انخفضت نسب المتطوعين في الجمعية بشكل ملحوظ.

وفي مصر أخبرني أحد العاملين بالجمعية الشرعية أن مقدار زكاة الفطر الذي كان يتصدق به الناس ويعطونه إلى الجمعية لتوزيعه على الفقراء والمساكين قد تقلص

بنسبة 90 %، الأمر الذي يعكس انكماش مدخرات المواطنين القادرين، ويخبرنا أيضًا أنه خلال السنوات الأخيرة توقفت تمامًا حركة انضمام المتطوعين الجدد لعدم وجود شباب أو فتيات يتطوعون في النشاط الخيري والإغاثي.

ونتيجة لهذا الشظف المعيشي ترى سيدة تونسية أن الوضع الاقتصادي الراهن يتسبب في تجريف الوحدة بين الجيران وبين العائلات الممتدة، وقالت: «حاليًا تزحف ثقافة من الأنانية إلى المجتمع التونسي، حتى المتدينين لم يعودوا يقدمون صدقات كما كانوا من قبل».

6) عبء التقاليد الجماعية

بدلًا من أن توفر الانتماءات للجماعة أو العائلة الحماية أو الأمان الاجتماعي أو الاقتصادي أو الدفاعي ضد البلطجة والعنف واللا أمان الاجتماعي، فإنها صارت عبئاً يحمّل الشاب تكاليف فوق مقدرته يعطل مشروعه أو أهدافه الخاصة. ففي بعض الانتماءات الجماعية يقع على كاهل الشاب مجموعة من الالتزامات المرهقة بالنسبة إليه وتتعارض مع طموحه الشخصي ومقدرته المحدودة.

ومثال ذلك هو أن بعض الانتماء لقبيلة أو عائلة ما في الإمارات يعني بالضرورة عدم حصولك على فرصة للعمل خارج إطار الإمارة التي تسكن فيها تلك العائلة، وهنا يتعارض طموح الشاب مع نظام القبيلة الذي صار بمثابة القيد الذي يسعى الشاب إلى الفكاك منه.

ومثال آخر هو أن الزواج في مصر وقطر وغيرهما من الدول أصبح بمثابة استعراض قومي للعائلات الأغنى، فالشاب الذي يطمح إلى الزواج من فتاة بسيطة يفاجأ بأنه مطالب بأن يشتري شبكة -هدية- للعروس تساوي أحياناً 200 غرام من الذهب قبل الخِطبة أساسًا، لا لشيء إلا للمفاخرة العائلية. ثم تعرض والدة العروس الشبكة أمام كل الضيوف في حركة لا يهتم بها الشاب ولا الفتاة أدنى اهتمام غالبًا، ولكنه عبء التقليد العائلي والانتماء للأسرة.

ونفس الموضوع يتكرر في الأردن، حيث قدر أحد مشايخ القبائل هناك أن 90 % من قروض البنوك تذهب إلى إقامة حفلات الأفراح الجماعية، وهو الأمر الذي يعد استهلاكًا يتجاوز مقدرة الفرد الواحد ويُعد تكلفة غير مجدية بالنسبة إلى حياته العملية(99).

ولذلك يتجه الشباب العربي إلى التحرر من ربقة هذه التقاليد المكلفة، كما يخبرنا أحد الشباب المصريين: «كرهت التقاليد الاجتماعية التي تفرض علي مصاريف باهظة من أجل تأسيس بيتي. ولو خيرت بين الزواج بهذه التكاليف الخيالية وبين العزوبية سأختار العزوبية دون أدنى تردد لأنها تريحنا نفسيًا وماديًا عن تلك الأعراف البالية التي لا تفيدني في شيء».

ويحكي لنا شاب مصري آخر: «أكثر ما نعاني منه في المجتمع الصعيدي هو القبلية -قبيلة هواره، قبيلة الأشراف- وظلمهم للبنات بإجبارهن على الزواج من أبناء عمومتهم من هذه القبيلة، في حين أن الولد له الحق أن يتزوج من خارج القبيلة حتى وإن كانت غانية!».

7) شيوع ثقافة السوق وطغيان قيم الرأسمالية

مع توحش الرأسمالية والتخريب النيوليبرالي في البلدان العربية، شاعت عقلية الربح وسيطرت على عقول المديرين والشباب فما عاد أحدٌ يرى هدفاً سوى الربح، وكل ما هو غير ربحي ولا يدر مالًا فلا قيمة له وهو بمثابة تضييع وقت في اللاشيء، وصار الجميع في سباق محموم نحو المال والأمان الوظيفي والاستقرار المعيشي.

كما فُقد الولاء للجماعات بسبب المتغيرات الحديثة لا سيما انتشار الأجهزة الذكية Smartphones، فقد أنتج العالم الرقمي ووسائل التواصل بديلًا عن الولاء الثابت وقدم عوضًا عن عالمًا من التغير السريع والتبديل المستمر، إنها ثقافة لا تعرف الرسوخ والتجذر والعمق بل تدور مع الربح والمنفعة الشخصية حيث دارا.

يدعم ريتشارد سينيت، أستاذ علم الاجتماع بجامعة نيويورك، هذا الرأي مؤكدًا

أن ثقافة التغيير المستمرة مضرة للإنسان على المستوى البعيد، ويقول: «السمة الملموسة لثقافة التغيير هي أنه «لا يوجد أمر طويل المدى».. وهذا أمر يفسد الثقة، والولاء، والالتزام المتبادل»(100).

يكشف لنا أحد الصيادلة المصريين عن دور هذه العقلية في تفاقم أزمة كوفيد-19 كورونا المستجد بقوله: «أعمل في صيدلية تمتلكها سيدة محترمة. لكن مع قدوم أزمة كورونا وفي بدايات الأزمة كانت معدات الوقاية نادرة وغير متوفرة عندنا، وأغلقت العديد من الصيدليات حتى يُرتب الوضع. لكن صاحبة الصيدلية عندي لم تعرض عليّ حتى أخد أجازة بالتبادل أو شيء مشابة حتى نتجنب الأضرار قدر الإمكان. فقد كان كل كلامها عن هذه الفترة أنها فترة صعبة لميزانية الصيدلية وأنها ستتسبب في تراكم الديون عليها. لم تفكر في الموظفين المعرضين للخطر ثانية واحدة».

السؤال إذن: ما الذي سأجنيه -ماديًا- من الولاء للجماعة؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه الشاب على نفسه إذا أقدم على التفكير في الانضمام لجماعة ما، فالشاب لم يعد يهمه قيمة أو معنى أو قضية بل يفكر منهجيًا في الأموال والأرباح أولًا. وحتى العزوف عن الدروس الإيمانية ومجالس التزكية.

في هذا السياق يشير ألترمان أن الشباب العربي حاليًا لا يرغب في التضحية بوقته أو ماله من أجل غاية جماعية كما كان الحال من جيل سابق أو جيلين(101).

وبحسب شاب سعودي فإن الشباب يتعاملون في المجال الدراسي كما يتعاملون في مجال البيزنس، فالجميع يتنافس من أجل احتكار النجاح كما يتنافس رواد الأعمال من أجل احتكار السلع والخدمات، يقول هذا الشاب: «تتجسد الفردانية في مجتمعي في كل شيء حولي تقريبًا.. أرى الناس والكل يحب نفسه ويقاتل من أجل مصلحته فقط، ففي دراستي أجد الجميع يتسابق من أجل النجاح على أكتاف الآخرين رافعًا شعار (لن أنجح حتى يفشل الآخرون) قليل مَن يساعدون الطلاب في

المذاكرة ومن النادر أن يتطوع أحد الطلاب لشرح مسألة أو فصل مثلًا، هناك حالة من البخل والاستئثار بالمعلومة أجدها مخيفة للغاية».

8) تحجيم دور المساجد

في المجتمع الإسلامي طيلة تاريخه مثل المسجد نقطة الارتكاز بالنسبة لعموم المسلمين، فمنذ بناء أول مسجد في الإسلام في المدينة المنورة كانت بيوت المهاجرين تؤسس حول المسجد باعتباره مركز المدينة وأهم ما في المدينة بأسرها.

قام المسجد -على مر التاريخ الإسلامي- بالدور السياسي والاجتماعي والإداري والاقتصادي. كان مركز التخطيط ومقر القيادة، ونصب نفسه كمنصة الوعي وملتقى الفكر، كما كان باب التكافل ومستودع التراحم بين المسلمين، ومنبع العلم ومَعين المعرفة، ودار القضاء ومُعدّ القادة، وكان المدرسة والكُتّاب والجامعة.

تضاءل هذا الدور الاجتماعي الهائل للمسجد وبات مقتصرًا على إقامة الصلوات الخمس فحسب. وفي مساجد كثيرة عينت الدولة موظفين لإقامة الصلاة، لا يفقهون شيئاً عن دور المسجد الحقيقي ولا يقومون بدورٍ أكثر مما يأخذون راتبهم من أجل أدائه.

أمام هذا التراجع الكبير لدور المسجد الجماعي تفككت الروابط بين عموم أمة الإسلام، فلم يعد هناك أنشطة مسجدية ولا دروس علمية ولا حتى صلوات جامعة، يخبرنا شاب سعودي: «تُغلق المساجد عقب الصلوات مباشرة. لم أتخيل أني كنت سأعيش في يوم لا يُسمح لي فيه بالجلوس في بيت الله لأنه (سيُغلق). أعداد المصلين قلت، دروس العلم توقفت ومُنعت. حالة التدين عامة في الحضيض. تخيل ما الذي سيحصل لو أغلقنا المساجد؟ من الطبيعي أن يتجه الشباب إلى الكافيهات والقهاوي والملاهي. لماذا تُغلق المساجد ويُفتح كل مكان آخر؟».

ولقد لاحظنا -خلال إعدادنا للكتاب- مدى التأثر السلبي الشديد للمجتمع مع إغلاق المساجد تمامًا خلال شهر رمضان 1441هـ بسبب الحظر المفروض للوقاية

من وباء فيروس كوفيد-19 كورونا. يوضح رجل أردني كيف أثر هذا الإغلاق على العلاقات الاجتماعية قائلًا: «كنت ملتزماً بالصلاة في المسجد، ومن العادة أني بعد صلاة الجماعة كنت أختم الصلاة ثم أذهب لزيارة أصدقائي وأقربائي والمرضى في المنطقة التي أسكن بها. لا حول ولا قوة إلا بالله الآن كل هذا صار ممنوعًا»(102).

ويخبرنا أحد الشباب المصريين عن التفكك الذي أصاب الروابط الاجتماعية بسبب إغلاق المساجد في رمضان كنموذج لأهمية دور المسجد الحيوي، فيقول: «أنا نزلت إلى الشارع خلال إحدى ليالي رمضان في ذروة الخوف من فيروس كورونا. ولاحظت الشباب كيف يقفون على النواصي يتناولون المخدرات ويلهون في السيارات والشوارع رغم حظر التجوال المفروض. وعندما اقتربت من بيتي وجدت أحد جيراني الشباب وهو يضيع وقته في البطالة في ليالي رمضان الغالية. في العام الماضي كان هذا الشاب يصلي معنا التراويح والتهجد كاملين، ولكن مع إغلاق المساجد صرف وقته إلى البطالة والضياع في رمضان».

بهذه النقاط الثمانية نكون قد أجملنا دوافع اتجاه الشباب إلى الفردانية حسب ما ورد إلينا من ردود في الاستبيان. وفي الفصل التالي نستعرض سبل تجاوز هذه النزعة من أجل تحقيق، أو الحفاظ على الحد الأدنى المطلوب من الانتماء الجماعي والإسهام في المجال العام.

الفصل السادس: ما الحل؟ نحو تجاوز الفردانية

في أبريل/نيسان 2020م نُشر مقطع فيديو على إحدى صفحات فيسبوك يصور أن الإنسان «العادي»، أي الطبيعي، هو من يعد أكبر إنجاز في حياته أنه يعيش بهدوء وبساطة؛ حيث يتنفس ويرتاح مع أولاده ويسعد عندما يجلس مع زوجته ويمر يومه بسلام، ليخلص الفيديو إلى نتيجة أن الإنسان العادي هو إنسان ممتاز يستحق المدح والثناء والتقدير.

انتشر هذا المقطع انتشار النار في الهشيم، وحصل على 10 مليون مشاهدة خلال أيام قلائل، كان المقطع متوافقًا مع النزعة الفردانية المتعاظمة الدائرة حول الذات، لكن ما زاد من انتشاره هو حالة التصوير المبالغ فيها للإنجاز الإنساني الذي يروج له خطاب المؤثرين Influencers على السوشيال ميديا من نوعية «أنت استثنائي» و«لا بد أن حياتك كلها تكون مليئة بالإنجازات» ونحو ذلك.

قوت نبرة هذا الخطاب مؤخرًا، الخطاب الذي يتسامح مع اليوم العادي بأقل التكاليف الدينية وبأقل الواجبات الاجتماعية، إلى حد أن أحد المختصين النفسيين قال إن الإنجاز هو أن تستيقظ من نومك وتسرّح شعرك وترتب سريرك، فهذه بالنسبة إليه إنجازات تستحق الإشادة والاحتفال!

وعلى قدر صحة التصور العام لهذا الخطاب في مواطن معينة لحالات معينة إلا أن الكثيرين يغفلون عن مواطن نقصه ومآلاته، فإن هذا النوع من الخطاب يعزز من التفاف المرء حول نفسه وانغلاقه حول حياته الشخصية، دون مراعاة لواجباته الأخلاقية والدينية تجاه الأمة، كما أنه يخلق حالة من الرضا بالدونية والاستسلام أمام الواقع دون محاولة لتغييره للأحسن، مثبطًا للعزيمة وقاتلًا للهمّة العالية.

وحول هذه النقطة يعلّق المهندس محمد فتوح قائلًا: «قد بات يغضبني -وليس فقط يحزنني- الكلمات التي تشرعن استسلام الإنسان للواقع المأزوم الذي ألمّ به، وإن كانت بعض المعاني حق في ذاتها من غير توظيفها في هذا السياق، مثل ما

كان على منوال: «نجاحه الوحيد أنه ظل واقفًا على قدميه». فلئن كان هذا نجاحه الوحيد، فلم لا يغير من حاله بعد عام واثنين وخمسة من الوقوف على قدميه؟ فإن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، والله يلوم على العجز المقدور على دفعه».

ومن المهم أن ندرك أن الخطاب القرآني لا يتوافق مع هذا الخطاب المثبط المتصالح مع أدنى الأعمال، بل دائمًا يدفع الإنسان للأمام ويحض المسلم على العمل ويرفع همته عبر ذكر القصص ووصف الجنة والوعيد بالنار والتذكرة بالثواب ونحو ذلك.

كما أن القرآن يحث الإنسان دومًا على تجاوز النزعة الفردانية والالتفات إلى ما يخص عموم الأمة والدين، وهذا الأمر يؤكده الشيخ أحمد عبد المنعم قائلًا: «نحن نعيش حالة من التيه والإحباط كنتيجة طبيعية لتجارب لم تؤت ثمارها وعدو متربص بها، وحالة من إعادة التشكل للصورة العامة للتيار الإسلامي على مستويات مختلفة. نعم، إن خطاب (تطوير الذات واستغلال المساحات الممكنة) = مهم جدًا لعموم الشباب الآن لإخراجهم من حالة الإحباط واليأس، ولكنه خطاب ناقص يحتاج إلى بث روح الأمة والانتماء إليها والدفاع عنها، فنحتاج إلى عدم الاكتفاء به حتى لا يتحول الشباب إلى أفراد منعزلين منهمكين في أعمالهم الخاصة غير مبالين بأي أحد أو بقضايا أخرى غير قضاياهم، وهذه أزمة التخصصية الزائدة التي لا يصحبها مؤسسات تجمعها أو فرق تديرها»(103).

هذه طبيعة الخطاب القرآني، فهو خطاب يشجع الإنسان دومًا نحو الأفضل ويجعله ينظر إلى الأعلى لا إلى الأدنى، هذه الحالة من استثارة الهمة في كل موطن تجعل الإنسان -حقيقة- يستفرغ كل وسعه في رضا الله، ولا يرضى بالدونية ولا يستسلم أمام واقعه البتة ولا يقنع بالدوران في فلك نفسه فحسب.

فإذا كان هذا الفصل يدور حول (الحل) لمشكلة (تعارض الفردانية مع الواجبات الدينية) فهل ننادي إذن بالعودة للجماعية؟ بكل وضوح: لا. فهل ننادي بالإبقاء على حالة الفردانية؟ بكل وضوح أيضًا: لا. فالنزعة الفردانية بحد ذاتها أيًا ما كان

حكمنا تجاهها فنحن لا نمتلك رفاهية إلغائها بالكلية أو حتى استرجاعها إلى حال ما قبل 2016م، وعليه فإن هذا الفصل من الكتاب يرى أن أن المشكلة التي ينبغي علاجها هي «الإغراق» في الفردانية، أي الاستراحة التامة لها والاتكاء عليها في كافة الخيارات الحياتية والأخلاقية لأنها تتعارض مع تكليفات المنهاج الإسلامي، فسنحاول إحياء بعض ما اندثر لإحداث قدر من التوازن المطلوب بين النزعتين، على الأقل في المرحلة التاريخية الحالية.

ولتبيين مدى أثر الإغراق في الفردانية، دعونا ننظر إلى إحدى حالات الفردانية المتطرفة، وكيف تعالج الأمور الشرعية في الدين.

يخبرنا شاب عربي يقطن في بريطانيا: «بعض المسلمين هنا يصومون في رمضان مثلهم كمثل بقية المسلمين، لكنهم يمسكون عن الطعام والشراب بعد أذان الفجر بساعتين وربما ثلاثة وأربعة، وعندما تخبرهم أن هذا يبطل صيامهم ولا يصح شرعًا يكون ردهم: (نحن نمسك بعد طلوع الشمس بفترة زمنية كبيرة لأن الوقت بين العشاء والفجر قليل وهذا ثقيل على أنفسنا). وعندما سألتهم عن مستندهم الشرعي في ذلك الاختيار فاجئوني بالرد قائلين: (استفتينا قلبنا وهذا هو ترجيحنا)».

تُعد هذه الحالة الأخيرة نموذجًا للشخص الفرداني عندما يتعامل مع الآراء الدينية، فقد بلغ اعتزاز هذه الثلة من المسلمين برأيهم وقناعتهم التامة بقدرتهم على الترجيح ما شجعهم على التحرر من أي سلطة معرفية والانخلاع من تأويلات وتفسيرات وأحكام الفقهاء والعلماء لكي يتجهوا إلى اتجاه شخصي جدًا في فهم وتأويل النصوص وابتداع الأحكام من الهوى الشخصي، ولو كان لهم أدنى انتماء للأمة الإسلامية وفقه للنصوص الشرعية الواضحة الصريحة القطعية لتورعوا عن هذا الفعل وتعلموا تعظيم الصحابة والسلف الصالح ولأدركوا خطورة الابتداع في الدين.

وعلى الصعيد المقابل فإن الاعتماد الزائد على الجماعية يمحو شخصية الإنسان تمامًا ويحوله إلى ذرة في كوم من الرماد بلا هوية ذاتية ولا فاعلية مستقلة، وليس أدل على ذلك من نموذج دولة الصين التي تقدس فكرة الأبوية، لا أقصد في الأسرة

النووية على المستوى العائلي وإنما أعني في الدولة على المستوى السياسي، فالدولة بالنسبة للصينيين هي الأب والراعي والمحدد لكل شيء وتتولى شؤون الأفراد الخاصة والعامة بشكل يلغي ذاتية المرء وإنسانية الإنسان تمامًا.

وعلى صعيد مقابل في عالمنا العربي حيث تنتشر التنظيمات الإسلامية الكبرى -على الأقل تاريخيًا- فقد سمعنا أحد قيادات التنظيمات الإسلامية يقول: «اللهم توفني على التنظيم» أثناء علاجه من إحدى الإصابات وهو يقترب من الموت، الأمر الذي يمثل طغياناً لفكرة التنظيم على الدين الإسلامي ذاته بحيث كل ما هو ديني فهو من التنظيم وكل ما هو خارج التنظيم فليس من الدين.(104)

المشكلة التي نعالجها إذن في هذا الفصل أننا أصبحنا - بوعي أو بدون وعي- مائلين إلى الفردانية وساكنين إليها ومنسحبين وراء جاذبية الخطابات التي تشجع عليها، حتى تضاءلت نزعتنا الجماعية شيئاً فشيئاً، وخطورة هذا الأمر - أي محو النزعة الجماعية بالكامل من حياتنا- نرى أنه سيؤدي إلى نتائج كارثية على مستوى الأمة، وسيدفع بالفرد لا محالة إلى التفريط في واجباته الأخلاقية والشرعية تجاه أمة الإسلام في نهاية المطاف، شعر بذلك أم لم يشعر.

يحاول هذا الفصل إذن طرح بعض الأفكار التي ننصح الإنسان المسلم بها من أجل الحفاظ على جذوة انتماءه للأمة وحفظ الرغبة في تجاوز الذات ومخالفة هوى النفس في اتباع مراد النفس، ورسم حدود تتفق مع الدين لفاعلية الإنسان المسلم ودوره في التاريخ.

1) الدعوة إلى الله

إحدى أهم السلوكيات التي نعتقد أنها إذا حافظ عليها المرء فإنه سيتغلب على سكونه إلى السلبية والتقوقع داخل الذات هي أداء فريضة الدعوة إلى الله والنهل من تجارب الدعاة والمصلحين، السابقين والمعاصرين، ولا يكون ذلك إلا باستشعار المسؤولية تجاه الآخرين ابتداءً.

فمن أركان الدعوة إلى الله أنها تربط الإنسان بخدمة الدين ومن ثمّ بالأمة كلها، فتتحلل عنده نزعة الأنا ليحل محلها الانتماء إلى عموم الأمة، وما يؤكد ذلك على سبيل المثال هو الموقف الذي بلغ فيه الإمام مالك أن أحد الزهاد يكثر من العبادة وانشغل بها عن طلب العلم، فكتب إليه مالك قائلًا: «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خيرٍ وبر»(105).

فقد اشتمل هذا المعنى اللطيف على مراعاة تفاوت قدرات الناس في فعل الطاعات بسبب اختلاف استعداداتهم وتنوع مواهبهم وميولهم، فكل ثغر له أهله والكل يجمعهم إطار المؤاخاة وخدمة الدين، ولا يكون هذا الفقه إلا لمن خبر الدعوة وخاض غمار العمل للأمة وأدرك مدى تباين القدرات والواجبات فيها.

وعلى النقيض فإن انعدام الدعوة يفصل المرء شعوريًا عن الإحساس لا بأمته فحسب بل بأضيق الانتماءات الجماعية وهي أخوّة الدم، فلا يصير يعرف عن الواقع شيئاً وإن عرف فهو لا يأبه به، فمثلًا تروي لنا فتاة مصرية قائلة: «أختي كانت تستغرب جدًا من توتري واهتمامي بأخي ذي ال 14 عامًا حينما كان يتعرض للإهانة والضرب والمقارنات السخيفة من أبي! فبمنتهى البساطة كانت تقول لي هل أبونا تعرض لك حتى تتضايقي هكذا؟ لقد تعرض لأخيك ولم يتعرض لك.. وفي موقف آخر كنا نتكلم عن مسلسلات NetFlix فقلت لها: (للأسف أعرف ناسًا يشاهدون مسلسلاتهم التي تمتلئ بالإباحيات فقالت لي (هم أحرار، هذه أذواق!) مع العلم أن أختي سنها 16 سنة فقط».

ومن هنا كتب الكثيرون في أهمية استشعار المسلم لمسؤولية المسلمين من حوله، ومن الرسائل اللطيفة هي رسائل الداعية الحاج عباس السيسي المعنونة بـ(الدعوة إلى الله حب) التي تفيض بمشاعر الاهتمام بأمور المسلمين، وحمل هم استنقاذهم من الضلال والغي، وإيقاظهم من رقدة الغفلة والانتقال بهم من وحشة الوحدة إلى أنس الرفقة، ويشعر كل من يقرأ الكتاب أن الحاج عباس يخاطبه هو شخصيًا ويلمس

شغاف قلبه من أجل مخاطبته بمعاني الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحيي لديه معايشة أحوال المسلمين(106).

وبالمثل فإن الشيخ عبد الوهاب الباكستاني، الذي كان نموذجًا في الدعوة والتربية، يوضح للمسلم أن كل مسلم يحمل مسؤولية عظيمة في الدعوة وتبليغ دين الله للعالمين قدر وسعه، وأن القول بأن الدعوة إلى الله هي فرض يُعد ظلمًا لها إذ أنه يرى أن الدعوة هي أم الفرائض فبحياتها تحيا الفرائض وبموتها تموت كل الفرائض في الأمة(107).

وعليه فإن الدعوة هي ليست مجرد سلوك عابر فحسب وإنما هي منهج حياة يقي الإنسان من التقوقع داخل حياته الشخصية ويعصمه من اللا مبالاة واللاكتراث، ويحضه على تذكر إخوانه في الأمة الإسلامية ومراعاة واجباته نحوهم.

2) الانخراط في العمل التطوعي غير المتعلق بمجال عملك

يمثل مفهوم «التطوع» رمزًا طيبًا للعمل الخيري والإغاثي والتعليمي والاجتماعي، وتتجلى فيه مفارقة عجيبة إذ أنه فكرة يستحسنها الجميع ويثني عليها خيرًا، ولكنه مع ذلك فإنه هناك عزوف كبير عنها في هذه الأوقات.

فالتطوع يمثل فرصة طيبة للشباب الذين يمتلكون قدرًا من الوقت الفارغ والهمة المطلوبة لاقتطاع جزء من وقتهم من أجل خدمة مجتمعهم وزملائهم والعائلات المتضررة والمحتاجة، الأمر الذي يساعد على التكافل الاجتماعي وتخفيف المعاناة عن الناس، فيدخل الإنسان في أجواء معايشة معاناة الناس من حوله ويشكل ذلك حافزاً بالنسبة إليه لأداء زكاة وقته وماله والإنفاق من حياته الخاصة من أجل مساعدة الناس.

ومن المهم أن نذكر هنا أننا لا نعد العمل التطوعي هو غاية المنتهى ولا ننظر إليه بوصفه الأمل الوحيد في الإصلاح أو الفرصة الذهبية للنهوض ونحو هذه الشعارات البراقة والمحفزة للعمل التطوعي، فإن العمل التطوعي في نظرنا مهما تعاظم إلا أن

دوره يبقى محدودًا في إطار السياسة العامة للنظام الحاكم.

بمعنى أن العمل التطوعي له سقف محدود جدًا ترسمه السلطات الحاكمة ولن يستطيع تجاوزه أبدًا، لذا فمن المفيد أن ننظر إليه بحسبه يهدف إلى «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» من رفع المعاناة عن بعض المساكين والمستضعفين، دون تقليل من شأنه ولا تضخيم لأثره كذلك.

وليس أدل على ذلك من أنه في الولايات المتحدة هناك ما يفوق 2 مليون منظمة غير حكومية، أغلبها غير هادفة للربح، ورغم ذلك تعتري الولايات المتحدة مشاكل داخلية وتحديات ضخمة في الفقر والعنف الأسري والعنصرية والقتل خارج القانون وانحلال أخلاقي وفوضى جنسية وغير ذلك، رغم وجود هامش كبير من الاستقلالية في عمل هذه المنظمات، وهو الأمر الذي لا يتوفر في العالم العربي البائس.

ولذا يحاول الباحث الأمريكي إيريك ليو استنهاض المواطنين العاديين للمشاركة في العمل التطوعي رافعًا شعار: «يجب أن نجعل العمل المدني مغريًا، ومعنى شعاره هو أنه ينبغي على الناس إدراك أهمية العمل الجماعي في عصر ينتشر فيه خطاب يحفز النزعة الفردانية ويجعلها خلاص الفرد ومصدر سعادته.

إن ليو يرى أن الفرد يمكنه أن يكتشف ذاته من خلال المجموع كما يمكنه أن يستثمر في قدراته عبر العمل الجماعي، كما أن صحة الأفراد الجسدية والذهنية والنفسية ستتحسن إذا شارك جميع الأفراد في التغيير.

ويقول: «فالعمل المدني يقاوم ثقافة الفردانية المفرطة التي نعيش فيها في هذه الأيام، كل رسالة نتلقاها من كل شاشة هي أن كل واحد منا حر، حر ليموت أو ليعيش تحت الجسور. الليبرالية تقول لنا إننا أسياد الأرض، لكنها تستعبدنا في العزلة المقيتة للاستهلاكية والقلق الطبقي»(108).

ومن بواعث العمل التطوعي في الإسلام أن المسلم دائم الاستحضار لمعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ حيث يربي هذا

المفهوم في نفس المرء أنه يعبد الله عبر عونه للناس، ولا يطلب من الناس شيئاً ولا ينتظر منهم شكرًا بل يبتغي رضا الله وحبه فحسب.

والعمل التطوعي بهذا المفهوم يعزز عند الإنسان قيمة العطاء للمسلمين، ويساعد المسلم في تجاوز الفردانية والانتماء لعموم الأمة ومعايشة قضاياها ومعاناتها والانشغال برفع الألم عنها قدر الطاقة المتاحة.

ويشير الباحث الأردني محمود أبو عادي إلى أن التطوع يشمل أبوابًا كثيرة، أحدها هو أن تستمع إلى أصحاب المعاناة والمشاكل وتخفف عنهم عبء الحياة، وهذا اللون من تخفيف المعاناة يمثل شكلًا من أشكال التطوع المفيد جدًا لنفسية الطرفين في عصر تغلب فيه الخصائص الفردانية والتفات كل امرئ حول نفسه فحسب.

ويقول: «إنّنا حين نُلزِم أنفسنا بمسؤوليتنا عن غيرنا، نشعر بشيء من التورّط، في مقابل ضرورة التخّفف الذي يفرضه علينا عصرنا لغايات السرعة والوصول بحسب الفلسفة البرغماتية للعَيش.

لكنّ هذا النزوع نحو الفردانية ما هو إلّا لعنة أخرى، ومقاومة هذه اللعنة وسيلتها أن تسعى على الدوام لأن تدعم مَن حولَك بكلّ ما تستطيع، وخاصّة الدعم النفسيّ والاجتماعيّ لرفع تقديرهم لذواتهم ولتحفيزهم لأن يَسعوا لتمكين أنفسهم للصمود في المراحل الصعبة. هذا ما يجعل كلّ إنصات للآخر واستماع له ولمشاكله بمثابة جلسة علاجية مجانية تُسعف بها مَن حولك ممّن تُحبّهم وتُقدِّر وجودهم، إذ بعض الأزمات لا يتطلّب منك حلّها سوى أن تكون موجودًا، وأن تُنصِت وأن تطمئن على مَن تُحب.

اسعَ لمساعدة غيرك، أن تُنصت وتستمع لهم، أن تقف إلى جانبهم في الأزمات، أن تُؤكّد لهم أنّ هُناك مَن يُؤمن بهم حقًّا، وأن تقوم بسلوكيات الإيثار والهدايا والعزائم والنشاطات الخارجية»(109).

وأخيرًا يرى المدون منصور القطري أن العمل التطوعي في العالم العربي يعاني

من عدة تحديات أهمها أنه لا يزال يلعب دور المساند والمكمل للدولة، لكنه يؤمن أن تعبئة الشباب نحو هذا القطاع بوعي منظم سيسهم في تحقيق قدر من الاستقلالية عن الدولة الحديثة، شرط وجود قيادات واعية لها رؤية بالثقل السياسي للعمل التطوعي واستراتيجية تتفوق على المؤسسات الرسمية(110).

ولن تنشأ هذه القيادات بشكل سحري من اللا شيء، وإنما يجب أن تفرزها الخبرة والتجربة الواقعية على الأرض، فالاكتفاء بالانتظار لن يجدي نفعًا فإننا لن ننام ونصحو لنجد من يرشدنا في التطوع، بل المطلوب أن نبني نموذجنا ونولده من خلال عملنا وكدّنا، وسيفرز الاشتغال العملي الكوادر والقيادات بطبيعة الحال.

3) الالتزام بالتجمعات الأسرية واسترجاع الروابط العائلية

من أبسط وسائل توثيق النزعة الجماعية، استعادة قوة الروابط الأسرية ولم شمل العائلة مرة أخرى، واستنقاذها من حالة التشرذم التي تغزو العالم العربي، وبما أن هذا الكتاب يتناول قضية الفردانية فيمكننا أن نقول إن بعض الشباب والفتيات يقطعون علاقاتهم مع أسرهم بدعوى أنهم ظالمون ومؤذيون، لكن عندما تبحث وراء الأسباب تجد أن السبب المذكور لا يستحق القطيعة على أساسه.

مثلًا تخبرنا إحدى الفتيات من الإمارات: «أخي الأخير يريد أن يتزوج بمضيفة طيران فيعارض أخي الأكبر، وأخي الأوسط وأبي يقولون المهم أنها تعجبك.. تسألني عن رأيي؟ وما شأني؟ هل أنا من سأتزوج؟».

تعبر الحالة السابقة عن نموذج من تفكك الروابط الأسرية لا لشيء إلا لطغيان الفردانية في الأبناء والبنات، ونستطيع أن نقول بكل وضوح إن مثل هذا التهميش المتعمد والاستسهال في قطيعة الأسرة ربما يصل إلى حد كونه كبيرة من كبائر الذنوب، كما أجمع بذلك العلماء.

ويؤكد الداعية أحمد يوسف السيد على حيوية الانتماء للعائلة قائلًا: «إن انتماء الشاب إلى البرامج الجماعية التي تجتذب اهتمامه، ونشاطه، سواء على نطاق العائلة

أو الأصحاب يعطيه غناء معرفيًا وعاطفيًا، ويقطع الطريق على كثير من أنواع الفساد للتسلل إلى دائرة اهتماماته وجهوده؛ إنها تعطيه فرصة لاكتشاف قدراته، ثم الشعور بالثقة والهوية، وهذا يشكل مانعًا نفسيًا من الاندفاع المضاد للأفكار غير الصحيحة.

فمن المهم جدًا الاعتناء بالبرامج العائلية المفيدة، التي تعطي ساحة من الحوار والفكر، مثل برامج القراءة الجماعية ومن ثم النقاش في القدر المقروء، وكذلك الأندية الثقافية التي يديرها الثقات الحريصون على الهوية الإسلامية، ونحو ذلك من البرامج؛ فهذا كله مما يساعد في تعزيز المناعة الفكرية، والوقاية من الشبهات المعاصرة».(111)

وتتكرر هاهنا شكوى دارجة: فماذا لو كانت الأسرة مخالفة بالكامل لتوجهاتي وقناعاتي الفكرية وبدأت في أذية الشاب أو الفتاة بالفعل؟ ماذا لو الأسرة كانت ظالمة وآكلة لحقوقنا فقطعنا السبل معها ولا سبيل إلى وصالهم مرة أخرى؟

نقول إن الطبيعي في عصرنا أن يعاني المسلم الملتزم أو الداعية إلى الله أو حتى الإنسان السوي الطبيعي من صعوبات أسرية وسجالات عائلية، يكاد هذا الأمر يتكرر بحذافيره مع كل حالة التزام تقريبًا وسط أسرة غير ملتزمة بالدين، والاستثناءات في ذلك قليلة. ومن هنا نقول: حاول التكيف مع أسرتك قدر وسعك حتى لو نالك قدر متحمل من الأذى، واحتسب الأجر له، ولا تستسهل قطيعة الرحم.

فإن كان ظلمهم قد تمادى، فحافظ على الحد الأدنى من العلاقة معهم، بالزيارة والسلام، بخدمة عارضة، بهدية بسيطة، بأي شيء تحفظ به خيط العلاقة بينك وبينهم. فقرار قطع العلاقة تمامًا قرار خطير لا يمكن أن يبنى من موقف أو موقفين فحسب.

وحتى القطع لا يكون بالأذى بل بالحُسنى، كما قال ابن عبد البر رحمه الله: «وقد أجمعوا على أنه يجوز الهجر فوق ثلاث، لمن كانت مكالمته تجلب نقصاً على المخاطب في دينه، أو مضرة تحصل عليه في نفسه أو دنياه، فرب هجر جميل خير

من مخالطة مؤذية»(112).

وإن كان المرء مستقلًا في بيته أو ما زال يعيش في بيت والديه، فليستعن بالله وليلملم شتات الأسرة إن كانت متفككة، وليخصص وقتاً ثابتاً في الأسبوع تجتمع فيه العائلة كما كان الحال قديمًا، وشيئاً فشيئاً ستثبت سنة هذا التجمع، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من اتبعها.

والشاهد مما سبق أن الزيارات الأسبوعية والاطمئان على أحوال الأقارب والتنزه معهم ومساعدتهم وتقديم النصح والإرشاد لهم وحتى النقاش معهم في الأحداث الجارية والمسائل والقضايا المستجدة، هو من ضروريات الحفاظ على نزعة الجماعية، وهو بالطبع قبل كل شيء أداء لفريضة صلة الرحم في الإسلام، ومهما كان هذا الأمر ثقيلًا أو يبدو غير ذي فائدة بالنسبة للشاب، إلا أن الكبار يستعظمونه جدًا، وثوابه في الشريعة عظيم كذلك.

انظر مثلًا ما سطره جلال أمين في سيرته الذاتية: (ماذا علمتني الحياة) حين وصف شعوره كشاب وهو لا يتحمل الحكاية مع والده ويشعر بالثقل كلما تحدث معهما، وندمه على ذلك، فيقول: «لا زلت أشعر ببعض الألم ووخز الضمير حتى الآن، كلما تذكرت منظر أبي وهو جالس فى الصالة وحده ليلًا، فى ضوء خافت، دون أن يبدو مشغولًا بشيء على الإطلاق، لا قراءة ولا كتابة، ولا الاستماع إلى راديو، وقد رجعت أنا لتوي من مشاهدة فيلم سينمائى مع بعض الأصدقاء.

أحيي أبى فيرد التحية، وأنا متجه بسرعة إلى باب حجرتى وفى نيتى أن أشرع فوراً فى النوم، بينما هو يحاول استبقائي بأي عذر هروبًا من وحدته، وشوقاً إلى الحديث فى أى موضوع. يسألنى أين كنت فأجيبه، وعمن كان معى فأخبره، وعن اسم الفيلم فأذكره، كل هذا بإجابات مختصرة أشد الاختصار وهو يأمل فى عكس هذا بالضبط. فإذا طلب منى أن أحكي له موضوع الفيلم شعرت بضيق، وكأنه يطلب منى القيام بعمل ثقيل، أو كأن وقتى ثمين جدًا لا يسمح بأن أعطي أبى بضع دقائق.

لا أستطيع حتى الآن أن أفهم هذا التبرم الذى كثيرًا ما يشعر به شاب صغير إزاء

أبيه أو أمه، مهما بلغت حاجتهما إليه، بينما يبدي منتهى التسامح وسعة الصدر مع زميل أو صديق له فى مثل سنه مهما كانت سخافته وقلة شأنه. هل هو الخوف المستطير من فقدان الحرية والاستقلال، وتصور أي تعليق أو طلب يصدر من أبيه أو أمه وكأنه محاولة للتدخل فى شئونه الخاصة أو تقييد لحريته؟

لقد لاحظت أحيانًا مثل هذا التبرم من أولادي أنا عندما أكون فى موقف مثل موقف أبي الذى وصفته حالًا، وإن كنت أحاول أن أتجنب هذا الموقف بقدر الإمكان لما أتذكره من شعوري بالتبرم والتأفف من مطالب أبي. ولكنى كنت أقول لنفسي إذا إضطررت إلى ذلك «إنى لا أرغب فى أكثر من الاطمئنان على ابني هذا، أو في أن أعبر له عن اهتمامي بأحواله ومشاعره، فلماذا يعتبر هذا السلوك الذى لا باعث له إلا الحب وكأنه اعتداء على حريته واستقلاله؟»(113).

4) الهروب من فخ العدمية

من السهل على الشباب في هذه الأيام أن يُصاب بالإحباط، أو على الأقل بشعور بالعجز عن التغيير، ويشعر بأن مقدرته الشخصية لن تؤثر في العالم. ويستطيع أن يجد من الذرائع والتبريرات عشرات وعشرات لاتجاهه إلى الفردانية وهجره لنمط الحياة الجماعي، معتقدًا بأن الواقع أكبر منه وبأنه لا يساوي شيئاً أمام متغيرات التاريخ.

نعم لا ينكر عاقل أن كل ما يمليه العالم علينا يدفعنا إلى التشوه والوقوع في فخ العدمية، ولذا فإن الاستقامة هي فعل بطولي في الحقيقة، أن تكون حرًا، متمسكًا بإيمانك، ثابتاً على دينك، عاملًا لخدمته، فهذه ملحمة إنسانية ينبغي أن يقف الإنسان أمامها منبهرًا ومشيدًا بفاعلها.

وقد قيل في الأثر: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا».

ولا يصعب على أي شاب حاليًا أن يؤمن أن الفشل هو مصير أي عملية تغييرية،

وأن أي تجربة لإصلاح الأوضاع هي تجربة محكوم عليها مسبقاً بالإخفاق، ولا يبعُد كذلك أن يفلسف هذا الشاب رؤيته البائسة، فيدّعي أن الانسحاب ذكاء، ويجادل أن اليأس واقعية، ويسمّي الإحباط نضجًا والاستسلام تطورًا فكريًا والتقهقر تقدمًا.

لكن الإنسان أسير معاناته، فهو يظن دومًا أن اللحظة التاريخية التي يعيش فيها لم تتكرر من قبل، وأن هزيمته أمام الواقع هو موقف استثنائي لم يحدث سابقاً، في حين أنه يفوته دائمًا أن أي عملية تغييرية في التاريخ لا تبدأ كبيرة ولا تمشي في خط مستقيم، بل تبدأ دائمًا بنواة اجتماعية شديدة البساطة تتأرجح بين الإخفاق والنجاح، والفشل والإنجاز.

فحتى التقدم التقني -والانهيار الإنساني- الذي نشاهده اليوم للولايات المتحدة وثقافتها ومؤسساتها لم ينشأ بين يوم وليلة، بل هو نتيجة مخاض أليم من حروب وصراعات ومعارك كبرى على كافة المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية استمرت لخمسة قرون تقريبًا، حتى كانت النتيجة ما نراه اليوم.

ومن أهم المعاني التي يمكننا استنباطها من التاريخ الإسلامي عندما سيطر الصليبيون على القدس واحتلوا المسجد الأقصى، فقد احتل الصليبيون القدس عام 492هـ وظلت محتلة طوال 90 عامًا تقريبًا، حتى حصلت معركة حطين بقيادة صلاح الدين وحدث التحرير عام 583هـ، تخيل لو كنت مولودًا في هذه الفترة قبل تحرير القدس فكيف ستنظر إلى العالم الإسلامي؟!

إن العالم الإسلامي كان من ناحية يقوده أمراء خونة يتعاونون مع الصليبيين، ومن ناحية أخرى تفككت الخلافة الإسلامية مع الغزو الصليبي من المشرق، ومن ناحية ثالثة غرق غالبية مشايخ الأمة في التصوف البدعي والإعراض عن قتال الصليبيين، بل إن منهم من أفتى بضرورة تسليم الأمر للحاكم المتغلب ويعني بذلك الحكام الصليبيين، ومن ناحية أخرى انتشر في العالم الإسلامي الفساد الأخلاقي والانحلال الجنسي وصارت المغنيات يُسمعن في الشوارع، والخمر قد شاعت في

مجالس اللهو التي زادت حتى ارتفعت منها الشكاوى.

وحتى الغلاء الاقتصادي ضُرب ضربة غير مسبوقة، فالقمح قد فُقد تمامًا، وبلغ سعر البيضة الواحدة دينارًا ذهبيًا كاملًا، والناس قد افترشوا ضفاف الأنهار حتى يلتقطوا ما تحمله إليهم من ورق الشجر ليملؤوا بطونهم به، وكان هذا حاصلًا في الوقت الذي كانت ابنة السلطان فيه تحمل مهرها على موكب مكون من 130 جملًا و33 فرسًا و74 بغلة كلها مجللة بالدباج الرومي محملة بأواني الذهب والفضة ومرصعة بالجواهر.

أما الانقسام السياسي فقد انقسمت مملكة السلاجقة إلى 6 ممالك متفرقة، وبلاد الشام صارت متشرذمة في إمارات صغيرة مشتتة. وعلى الصعيد العسكري تفككت الجيوش وتاهت الإرادة السياسية وصارت الرشاوي والارتزاق عنوان الجيوش، والصليبيون يستبيحون البلاد ولا أحد يلبي نداء الجهاد ودفع العدو.

كانت هذه الظروف ملائمة تمامًا لأي شاب أن يفقد الأمل وأن ينظر إلى حياته الخاصة، وأي شخص كان يستطيع الانسحاب من الواقع والانهزام أمام فشل المسلمين، لينشغل بذاته وتأمين معيشته بعيدًا عن الأحوال السياسية والعسكرية المتردية.

فهل ظهر صلاح الدين هكذا من العدم لينقذ الأمة ويكون بطلها الواحد الأوحد؟ وهل يمكن ظهور صلاح الدين آخر في وقتنا الآن؟

يشير الدكتور ماجد الكيلاني في كتابه (هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس) أن صلاح الدين الأيوبي وتحريره للقدس لم يأتيا كنقطة استثنائية في التاريخ؛ بل كانت تجميعًا لجهود متفرقة في أرجاء العالم الإسلامي من مدارس تربوية وأوقاف ومنشآت قائمة وتوحيد لاجتهادات مدارس الإصلاح والمرأة المسلمة والأخلاق الإسلامية، وغير ذلك من منظومة عمل وسلسلة أحداث طويلة جدًا تكللت في النهاية بتحرير القدس(114).

ويذكر الكيلاني أن الذين قادوا عملية التغيير هم أناس عاشوا قسوة الأحداث، وتجرعوا مرارة التجارب والأخطاء والإغراق في الفكر والممارسات العملية، وذاقوا حلاوة الإصابة وخلصوا من ذلك كله إلى تغييرها بأنفسهم أولًا ثم إلى بلورة تصورات معينة واستراتيجية خاصة، انتهت بهم إلى وجوب تكامل الميادين والتخصصات وإلى تضافر جميع الهيئات والجماعات.

وبعد ذلك كله مضوا في تنفيذ هذه الاستراتيجية طبقا لخطوات مرحلية حتى انتهوا إلى الخطوة الأخيرة وهي إعلان التعبئة العامة والجهاد العسكري. وكان مقدار النجاح الذي حققوه في جهادهم متناسبًا مع درجة الصواب والإخلاص في استراتيجياتهم. ولا شك أن وقوف القارئ على تفاصيل هذا التغيير ومظاهره ومراحله التي جرت في المجتمع الإسلامي سواء في المرحلة التي مهدت للغزو الصليبي آنذاك، أو المرحلة التي هيأت الأمة لدفع هذا الغزو، يقدم الدرس المفيد في محنتنا التي تواجه إزاء عوامل الضعف التي تعمل في كياننا من الداخل والأخطار التي تهددنا من الخارج(115).

إذن فالنزوع نحو العدمية أمر يسير ويمكن منطقته بسهولة، لا سيما في عصر تكاد الحركات التغييرية كلها تحبو نحو هاوية الفشل، لكن الحكمة تقتضي النظر في التاريخ وإدراك أن مآل كل أمر إلى التغيير في نهاية المطاف، فالسؤال ليس متى أو كيف سيتم التغيير، فإن التغيير حاصل لا محالة.

وإنما السؤال الصحيح هو: ماذا سيكون دوري في عملية التغيير القادمة؟ وإذا وقفت أمام الله تعالى يوم القيامة فبمَ سأجيب عن سؤاله -عز وجل- إيانا عما قدمنا لأمة الإسلام وللمستضعفين من المسلمين؟

فمهمة المسلم أن يبحث عن إجابة لهذا السؤال ويستنقذ نفسه من الوقوع في فخ العدمية، وأن يعيد تعريف معاني مثل الإنجاز والنجاح والتقدم في حياته، حتى لا يقع فريسة لأوهام الفشل والكسل التي تصدرها السوشيال ميديا.

ومن الوسائل المعينة على تجنب الكسل كذلك هو الانقطاع عن كل ما يجلب

الإحباط إلى حياتك، دون الانفصال عن الواقع لدرجة تعميك عنه، وفي المقابل فإن ممارسة الأنشطة والتركيز في حياتك وخططك قد يحفز الإنسان لمزيد من الإنجاز.

كما أن مساعدة الناس، ودعوتهم إلى الله، وعونهم على نوائب الدهر، كل ذلك يرقي من نفسية الإنسان. بالإضافة إلى ذلك فإن أحد أهم أركان الوقاية من العدمية هو التمسك بحبل الله المتين والالتزام بالدين، فلا يمكن للإنسان أن يفرط في فرائضه ونوافله ثم يسأل عن سبب إحباطه، فأي شيءٍ يبقى للإنسان في هذا العالم بعد تفريطه في الدين؟

5) البحث عن شيخ، أو معلم كبير في حياتك

قد لا يرى بعض الشباب أهمية وجود كبير في حياة الإنسان، أو أنه خاصية يمكن الاستغناء عنها، أو أنها صفة قديمة تجاوزها الزمن، لكننا نرى أنه في بعض الأحيان تبقى فكرة (الكبير) ضرورة وصمام أمان لحياة الشاب، لا سيما في مراحله الأولى من مراهقته وشبابه خلال أطوار تعلمه واكتسابه للمعرفة والمهارات.

كان هذا الدور ضليعًا بمشايخ المنطقة وكبار العائلة، لكن نظرًا للتفكك الأسري وانكماش دور المساجد الثقافي والتربوي والاجتماعي، بالإضافة إلى الاستهزاء والتنقيص المتوالي على دور الكبير والمعلم في الحياة، والتشويه المتعمد لرجال الدين في الدراما والسينما، تفككت هذه الرابطة بين الشباب.

انظر مثلًا الفرق بين فيلم الحاسة السابعة ومسلسل الكبير أوي المصريين، في الفيلم الأول الصادر عام 2005م يخوض الممثل الرئيسي رحلة تيه وحيرة يقف أمامها عاجزاً فيلجأ في النهاية إلى شيخ كبير في السن يثق في حكمته ورجاحة عقله ليوجهه وينصحه، فيمتثل الممثل إلى نصيحته ويجد فيها الخلاص بالفعل.

أما في المسلسل الثاني الصادر آخر أجزائه عام 2018م، فإن المسلسل يقولب دور عمدة القرية في المقالب الكوميدية والمواقف الساخرة ويحط من شأن المنصب ذاته بوعي أو بدون وعي، لتزال هيبة المنصب من نفوس الشباب عامة وما يحمله

من وقار وهيبة.

ورغم ما قد يحمله الشاب للكبير من نفور بسبب التباين في السن والفجوة الجيلية بين الصغار والكبار، بالإضافة إلى الاختلاف الكبير في الرؤى والأفكار والمعتقدات، إلا أن الحفاظ على دور الكبير في حياة الإنسان يعصمه من كثير من الزلل ويقيه من شر الانكفاء على الذات والثقة الزائدة فيها.

يقول ابن المقفع رحمه الله: «وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه ويجرئهم عليها حتى يصيروا حرساً على سمعهِ وبصرهِ ورأيه، فيستنيم إلى ذلك ويرِح له قلبهُ، ويعلم أنهم لا يغفلونَ عنه إذا هو غفل عن نفسه.

وعلى العاقل، ما لم يكن مغلوباً على نفسه، أن لا يشغلهُ شغلٌ عن أربعِ ساعاتٍ: ساعةٍ يرفعُ فيها حاجتهُ إلى ربهِ، وساعةٍ يحاسبُ فيها نفسهُ، وساعةٍ يفضي فيها إلى إخوانهِ وثقاته الذين يصدقونه عن غيوبهِ ويصونوهُ في أمر، وساعةٍ يُخلي فيها بين نفسهِ وبين لذتها مما يحل ويجملُ، فإن هذه الساعةَ عونٌ على الساعات الأخرِ»(116).

ولذلك يشجع المؤلف الأمريكي مارتين سانديرس الشباب على اتخاذ «مرشد/معلم Mentor" كبيرًا لهم في حياتهم، مؤكدًا أن الشاب (الذي يسميه التلميذ) يحتاج في نموه إلى مَن يعينه على بناء ذاته شعوريًا وذهنيًا. وبحسب سانديرس فإن الشاب من سن 18 إلى 30 عامًا يكون منفتحًا أساسًا على التعلم، ويحتاج إلى من يرشده ويعينه على فهم ذاته وتطوير قدراته والإشارة إلى مواطن القوة والضعف لديه، قائلًا بأن القائد الحقيقي لا يمكن أن ينشأ وحده وإنما لا بد له من معلم أو مرشد يعينه على النمو الفكري والعاطفي والمهاري، أو بلفظنا في البيئة العربية: كبير(117).

يمكننا ملاحظة أهمية هذه الفكرة حينما ننظر للشيخ البشير الإبراهيمي في سيرته، حيث يذكر أن عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي هو الذي تولى تربيته العلمية والثقافية وتكوينه الفكري واللغوي، وكان يشرف عليه في يقظته ومنامه

وطعامه وحتى في أوقات التنزه اليسيرة، كما يقول: «فلما بلغت سبع سنين استلمني عمي من معلمي القرآن وتولى تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان لا يخليني دقيقة واحدة من فائدة علمية، فحفظت القرآن وحفظت بضعة آلاف بيتٍ من الشعر، في النحو والفقه والأصول وغيرها»(118).

ولا يقتصر دور الكبير على الإرشاد والتوجيه والتعليم فحسب؛ بل يتجلى دوره كذلك في حل الخلافات وحفظ أواصر المودة بين الناس حال الاختلاف، فمثلًا إذا حدث خلاف مالي بين اثنين من الشباب، ولم يكن بينهما عقد أو وثيقة مكتوبة، كما اختلفا على العُرف الدارج في حل هذا النزاع، فإن الوسيلة الأمثل هاهنا أن يتفق الاثنان على التحكيم، يعرض أحدهما على الآخر رجلًا يثق في رأيه ويطمئن إلى مشورته يضع أمامه القضية، وأيًا ما كان رأي هذا الرجل فسينفذه ويلتزم الطرفان برأيه.

وهكذا يُسوَّى النزاع وضمان حق كل منهما في إطار من الود والمحبة وإعلاء قيمة الحق والعدل، ويمثل غياب هذا الرجل تهديدًا إذ أنه ربما يتصاعد الخلاف حتى يصل إلى أزمة نفسية مع كل منهما، وربما تمادى الأمر إلى اتهامات بالباطل وما يجره الشيطان من شحناء وبغضاء تجاه المتخاصمين لا سيما في الأمور المالية. وهذه بالذات أحد أهم أدوار الكبير في حياة الإنسان.

6) تعلم اللسان العربي المبين

قد يكون من المستغرب أن تُدرَج اللغة كأحد مقومات استرجاع النزعة الجماعية في العالم العربي، فبالنهاية ما علاقة النطق والكلام بالانتماء للأمة الإسلامية؟

الحقيقة أن الانتماء للهوية الإسلامية والأمة المسلمة يَقوى بالانتماء للغة العربية الفصحى، وكم جنينا على أبنائنا جراء تفريطنا في اللغة العربية الفصحى، ويكفينا أن أستاذة الدراسات اللغوية سهير السكري أشارت إلى أن الطفل الذي ينطق أهله بالإنجليزية يتعلم في الصغر 16000 كلمة، في حين أن الطفل العربي يتعلم في معظم اللهجات العامية ما لا يتجاوز 3000 كلمة، في حين أن الطفل الحافظ للقرآن

يستوعب 50000 في معجمه اللغوي الذهني(119).

هذا الارتباط الوثيق بين اللغة العربية والقرآن يبين أن العلاقة المباشرة بين ارتباط الإنسان باللغة من ناحية وارتباطه بالنصوص والأمة الإسلامية من ناحية أخرى، ولذلك يقول الباحث حازم صاغية: «فسحر الكلمة العربية وخاصيتها شبه النبوية تتعلق بالرابطة الوثيقة بين اللغة العربية والقرآن.. إنها لغة في هذا المعنى جماعية وليست فردانية»(120).

وفي كتابها (تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر وآثارها) تؤكد أستاذة الأدب نفوسة زكريا أن الدعوة إلى اتخاذ العامية كوسيلة للتعبير والحديث اليومي، هي من أخطر الدعوات التي تعرض لها التعبير العربي، وبسببها نشأت أعنف أزمة عرفها تاريخه الطويل، وتقول إن «الأمة العربية تعرضت إثر استخدام اللغة العامية إلى أعنف انقلاب ثقافي بعد الإسلام».

لذا فليس من العجب أن أول دعوة للعامية في مصر وغيرها من البلدان تكون من بنات أفكار الاحتلال الأجنبي، حيث هو من حض على تعلم ونشر اللغة العامية لطمس هوية العرب المسلمين وفك ارتباطهم بالقرآن والسنة النبوية والتراث الإسلامي(121).

وهذا هو ما فهمه الاحتلال الأجنبي لبلاد المسلمين منذ أمد بعيد، فقد أكد الباحث والصحفي جادفري جانسن في كتابه (الإسلام الثوري) أن الاحتلال الإنجليزي لمصر والسودان رفض التعليم باللغة العربية في مدارسه لأن العربية «سوف تفتح الباب أمام انتشار الإسلام»(122).

وبناء على هذا التصور لدور اللغة العربية المحوري في تقوية روابط الإسلام والمسلمين؛ فقد صرح أحد الجنرالات الفرنسيين في منطقة المغرب العربي: «اللغة العربية عامل من عوامل نشر الإسلام لأنها مكتسبة من القرآن، ومن مصلحتنا أن نجعل شعب البربر ينشأ خارج إطار الإسلام»(123).

7) مقاومة الثقافة المهيمنة

ذكرنا في الجزء الأول من الكتاب كيف ينظر الغرب إلى الفردانية بوصفها وسيلة لتفريغ الشعوب الإسلامية مِن قدرتها على المقاومة وصد العدوان، بمعنى أن ثقافة الفردانية هي رسالة يحارب الغرب ويجيش جيوشه الإعلامية والثقافية والاجتماعية، من أجل نشرها في المجتمع بين العرب والمسلمين.

والمسلم الواعي يبصر بعين ثاقبة نحو هذه الثقافة وآثارها في العالم الإسلامي، ومن ثم فإنه يؤهل نفسه لمقاومة ثقافة الغازي ومنعها من التسرب إليه وتفكيك منظوماته القيمية والأخلاقية.

ولذا يرى الدكتور السوداني محمد المجذوب أنه علينا كترياق أن ندافع عن القيم الجماعية ونكرسها في وسَطنا وأسرنا، كونها العاصمة من التحلل الشامل لحضارتنا. فنحن في مواجهة في بقائنا كحضارة وكأخلاق وحتى كبشر. ضد هيمنتهم وفرض نفوذهم ودفاعًا عن وجودنا(124).

هذه النفسية مهمة للغاية في التعامل مع الفردانية؛ إذ أنها منتج ثقافي غربي قادم من المحتل الذي يغزو بلادنا ويستبيح ثرواتنا ويهدم ديننا، فمن الضرورة بمكان أن ننظر بوعي إلى أدواته التي يهيمن بها علينا من أجل مقاومتها وصدها عن الوجود بيننا.

وسأنقل هنا رؤية الباحث محمود أبو عادي لهذه النقطة وأعتذر للقارئ مقدمًا عن طول النقل، يقول أبو عادي: «المجتمع هو حقل صراع بين سيستم مُهيمن، ومناوشات متشظّية هُنا وهُناك، يقوم بها بعض الأفراد بين الحين والآخر كفعل مُقاوِم. يحدث هذا لأنّ الأفراد في المُجتَمع يَرونَ أنفُسَهم كصغار يواجهون نظامًا مُهيمنًا بأكمله، ينظرون إليه من الأسفل، لا يملكون تغييره ولا يملكون أن يُحدِّدوا مصيرهم أو مُستقبلهم بأيديهم. هُنا يستخدم دو سارتو، ثُنائية الاستراتيجيّة Strategy والتكتيكيّة Tactic لوصف أشكال التفاعل.

يمكن القول إن الاستراتيجيّة Strategy هي إرادة أو قوانين السُلطة في وَسَط ما، إمّا على مستوى الدولة كسُلطة حُكم، أو على مستوى المؤسسات والشركات. الاستراتيجية هي توجهات عقلانية تُحدّدها السُلطة العُليا لطريقة سير الأمور. لاحظ أنّ الاستراتيجية يجب أن تصدر عن جهة ما خاصّة واضحة المعالِم، لأنّها يجب أن تُبقي على مسافة بينها وبين أولئك الذين يتّبعون هذه الاستراتيجية، فهي ليست هُم وهُم ليسوا هي.

أمّا التكتيك Tactic فهي التدابير والإجراءات التي يقوم بها الأفراد كمحاولة للاحتجاج على الاستراتيجية المفروضة عليهم. لاحظ أنّ التكتيك آني ولحظيّ وعابر، على عكس الاستراتيجية المهيمنة وشبه الدائمة. ولاحظ أيضًا أن التكتيف فعل مُبعثَر ولا يُوجَد في مكان خاصّ، وإنّما هو محاولات متفرّقة من أفراد منفصلين، يعملون في الظلّ وفي الخفاء بعيدًا عن أعين الاستراتيجيّة، كمناوشات مع السُلطة. ومن أشكال التكتيك، الكتابة على الجدران، الإضراب، الاعتصام، تدمير ملكية تخصّ الاستراتيجية، أو السخرية والنقد والمظاهرات ونحوه.

أذكر هذا التفريق، لضرورة تكثيف المحاولات التكتيكية في مقاومة السستم، فحينما تشيع المحاولات التكتيكية أو تتحوّل إلى سلوك جَمعيّ مُنظّم أو غير مُنظّم، فإنّها تصير مصدر تهديد للسلطة والاستراتيجية، الأمر الذي يُسهم إمّا بتجاوب السلطة أو تغيير سياساتها أو إظهار الصراع معها على السطح بوضوح أكثر. وحسبُك من الأمثلة ما فعلته انتفاضة السكاكين بالاحتلال الإسرائيلي، أمّا على المستوى التقني فبإمكانك أن تُشاهد فيلمي Snowden و Citizen Four كمحاولات تكتيكية لزعزعة السستم.

هذا يعني بالضرورة أنّ أي وَسَط مُؤسّسي داخل الدولة، هو حقل للصراع والإصلاح، فحينما يعمل الأفراد على محاربة الفساد أو على مقاومة السستم الذي يسلب ذوات العاملين به، فإنّ السستم سيجد نفسه مضطرًا إلى التنازل أو الحوار أو الانسحاب، بدلًا من تركه يتمدّد كورم على حساب باقي فئات المجتمع.

وهذا يعني أنّ من واجبنا كأفراد شاهدين على مرحلة تاريخية ما، أن نقول قول الحقّ الذي يُزعِج السّلطة، وأن نُقاوم كلّ أشكال البربرية التي تقوم بها مُؤسّسات يُديرها أفراد يلبسون البدلات الراقية ويجتمعون في أفخم الفنادق، في مظهر يعكس مدى تمدّنه السطحي، أما بربرية الأفعال فهو ما يغفل عن رصده الفئات المُتضرّرة. وحسبك من هذا أن تقف على الدوام في صفّ المُضطهدين والمظلومين والضحايا والشهداء الذين ارتقوا في سوريا وفلسطين وباقي أنحاء العالَم، على أيدي الطُغاة والمُجرمين.

لزوم المقاومة بحدّ ذاته معركة، فأن تكونَ مُقاوِمًا يعني أن تُربّي في نفسك وغيرك الشجاعة. فالشجاعة على أقل تقدير هي فَن قهر الخَوف. وهذا يُذكّرنا بالمقولة التي يستشهد بها إدغار موران «ترتعد أيّها الجسد! لكنّك سترتعد أكثر حين ستعلَم إلى أين سأمضي بِك» فالمقاومة هي النزوع نحو القيام بأفعال خطيرة، لكنّها تحمل رمزية وحمولة عظيمة، وفاءً للقِيَم التي نُؤمِن بها، ووفاءً للثائرين والشهداء والأسرى الذي ضحّوا للدفاع عنها.

هذا يعني أنّك حين تشعر بالخوف أو اليأس، فإنّ مسؤوليتك هي أن لا تنشر هذا الضعف السلبيّ في الفضاء العام أو أن تنقله للآخرين خاصّة في اللّحظات الأكثر ثورية، ومثلها ما يجري في المظاهرات، إذ القاعدة التي تنطبق هي كلمات الأغنية: «إن خِفت ما تقولشِ، وإن قولت ما تخافشِ.

نقاط التركيز إذن: لزوم المقاومة وعدم الانهزام، أن تتدرّب على الشجاعة (إنّك تصيرُ شجاعًا حين تقوم بأفعالٍ شجاعة)، أن لا تنشر السلبية والعدمية والانهزام بين أقرانك بل على العكس تمامًا حتى لو كُنتَ تُؤمن عقلانيًا وداخليًا باستحالة التغيير، وأخيرًا أن تستثمر علاقاتك وتربيتك لأطفالك لتربية التفكير النقدي والشجاعة وعدم الخوف والحُرّية».

ويمكن هاهنا أن نشير إلى كتاب (الهروب من السيستم) للمدون طوني صبغيني، فقد أورد فيه معاني عملية للغاية يمكن تطبيقها على المستوى الفردي لمقاومة بعض

البشاعة الموجودة في هذا العالم الحديث(125).

8) معايشة سير المصلحين

واحدة من ميكانزمات الدفاع أمام تغول النزعة الجماعية علينا هو معايشة سير المصلحين عبر قراءة سيرهم وتراجمهم. وهذا الأمر كان منصوصًا عليه في تراثنا الإسلامي بشدة ويوصي به جميع العلماء. فالقراءة في سيرة الإنسان تجعلك كأنك تجالسه، كما سأل أبو داود عبدالله بن المبارك: «مَنْ تجالس بخراسان؟» فقال له: أجالس شعبة وسفيان. قال أبو داود: يعني: أنظر في كتبهما.

وقد نبه ابن الجوزي رحمه الله إلى أهمية معايشة سير السلف الصالح وعدم الاكتفاء بقراءة كتبهم العلمية فقال: «وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم.. ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع»(126).

ويمكننا أن نورد هاهنا نبذة عن نماذج عديدة تحدت ظروفها واستطاعت أن تسير في سبيل الإصلاح رغم كل ما تعانيه أو تلاقيه من صعوبات، ويمكن للقارئ أن يطلع على هؤلاء المصلحين على تنوع مشاريبهم من أجل إدراك أن العمل للدين له طرق كثيرة جدًا يمكنه أن يعمل في أيها شاء.

فعلى سبيل المثال وُلد الشيخ البشير الإبراهيمي عام 1889م في عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبدأ بحفظ القرآن وطلب العلم منذ نعومة أظافره في الجزائر، وحفظ العديد من المطولات والمتون في صغره، ثم قادته الظروف إلى المدينة المنورة فاستمر طلبه للعلم هناك، وكان بإمكانه أن ينسحب من الصراع السلطوي وينأى بنفسه عن مقاومة الاحتلال مدعيًا الانشغال بطلب العلم وتزكية النفس فحسب.

لكن الشيخ الإبراهيمي يدرك أن مسؤولية العلماء تحتم عليهم الاحتكاك مع قضايا الأمة الخطيرة وتلبية نداء الحاجة، فخرج من فكرة العالم المعتكف في المكتبات العامة وتوجه للشأن العام وتبنى مشروعًا إصلاحيًا يقوم على التعليم الإسلامي المنظم وتوحيد جهود العلماء ونشر الثقافة الإسلامية للشعب الجزائري، فبنى المدارس وأنشأ العديد من المجلات العلمية وانشغل بالتحفيز والحض على القيام بمطالب الأمة، حتى رحل المحتل عن الجزائر وخطب الشيخ أول جمعة بعد استقلال الشعب(127).

أما الدكتور الكويتي عبد الرحمن السميط فقد وُلد عام 1947م وكان طبيبًا ناجحًا حاصلًا على شهادات دراساته العليا من بريطانيا وكندا، ملتزماً ومحبًا للعمل الخيري بصورة عامة، حمله حبه للدعوة إلى التنقل بين دول أوروبية وعربية عديدة في سنوات عمره الأولى، ثم في لحظة قرر ترك حياة الدعة والراحة وسافر إلى مدغشقر، وكان شغله الشاغل هو الدعوة إلى الله، وتبدلت حياته فصار ينام بمساجد طينية ويجلس اليوم الكامل بدون أكل وهو في ذلك محتسب راض.

أمضى السميط عمره كله في بناء المساجد وتعليم حلقات القرآن للأطفال والشباب والرجال، وآثر إطعام الجائعين وهداية الحيارى وحث الناس على المعيشة المرفهة والسفر والسمعة العالمية، كان يسير في الأنهار ويتجشم الصعاب، وأعانه الله بزوجة تعينه وتصبر معه، وتبرعت بمالها كله تقربًا لله، وكذا كان أولاده الذين كان منهم أساتذة جامعات لكنهم تشربوا من أبيهم خدمة الأمة وإنقاذ المستضعفين(128).

إن الأحاديث عن القدوات الصالحة الذين أفنوا أعمارهم لخدمة الدين حديث يطول، فمن الداعية أحمد ديدات الذي كان يبيع الملح ويعمل سائقاً، لكنه غيّر مجرى حياته وتحمل شظف العيش من أجل تأسيس حركة دعوية أتت بثمارها وجالت الأرض قاطبة وزلزلت عروش المبشرين والمنصرين(129)، إلى المجاهد المغربي عبد الكريم الخطابي الذي قاوم الاحتلالين الأسباني والفرنسي واستطاع أن يطرد

المحتل من وطنه بل أقام دولة تاريخية تسمى بجمهورية الريف.

إلى الشيخ القعيد أحمد ياسين الذي كان يحرض على المقاومة ويجوب البلاد ليعطي الدروس والعظات، وهو يعاني من الشلل الجسدي ويحمله أصحابه على أيديهم ويطوفون البيوت ليدعو إلى الله حتى اغتالته القوات الصهيونية بقصف جوي، إلى آخر النماذج الهائلة والمبهرة التي يمكن للإنسان أن يستمد منها كيف تغلب المسلمون على الظروف واستطاعوا الانتماء للأمة والانشغال بقضاياها في عالم يسوده الظلم واللامساواة.

إن المفكر الثوري علي شريعتي يوضح أن الهزائم هي ما جعلته أقوى وقادرًا على العطاء أكثر، فهي تشكل دافعاً له للتقدم والاشتعال وليس للتقهقر والانسحاب، وقال في آخر رسالة أرسلها لابنه إحسان عام 1977م: «أحمد الله لأنني عانيت كل تلك التجارب والنكسات المتعاقبة، ولا يزال عودي صلبًا. أي جلد سميك يغطي هذا الجسد ويحميه؟ إن بعض علماء النفس يقولون: إن الجيل الواحد لا يتحمل أكثر من هزيمة واحدة.. وها أنا ذا أعد نفسي للهزيمة السادسة أو السابعة. الهزيمة أم النصر، وما الفرق؟ .. إن ذلك مهم جدًا للتجار والرياضيين ومحترفي السياسة، أما بالنسبة لنا، فالمهم هو أداؤنا لرسالة الله وقيامنا بواجبنا، تحت الظروف كلها وفي مواجهة الاحتمالات كلها، فإذا انتصرنا نرجو من الله أن يقينا شر الغرور ونزعة الظلم واضطهاد الآخرين، وإذا هُزمنا نرجو من الله أن يقينا من الذل والهوان والخنوع»(130).

فالمشترك أن جميع النماذج السابقة قد نشأوا في ظروف تدفعهم لسبب أو لآخر إلى الفردانية والانشغال بالذات والإعراض عن الانتماء أو خدمة الأمة، فواحد يمتلك مالًا ويستطيع أن يخدم بماله المسلمين فحسب، وآخر يعيش وسط الاحتلال الصهيوني، وآخر نُفي من وطنه ثم رجع إليه ليحمل مشعل المقاومة مجددًا، لكنهم جميعًا تغلبوا على هذه النزعة الفردانية وقادوا شعلة التغيير وفقاً لإمكاناتهم وقدراتهم، ففتح الله على أيديهم ما لم يفتح على مئات وآلاف المسلمين. ومن صدق

الله صدقه.

9) ليس هناك عصا سحرية

أحد أهم أسباب اتجاه الشباب إلى الفردانية هو حالة الإحباط العامة التي تتصور أن التغيير مستحيل وأن كل باب للأمل في تغيير التاريخ قد أُغلق.

وللأسف بسبب عوامل كثيرة فإن البعض لا يستسيغ فكرة التغيير طويل الأمد، ولا يتصور فكرة أن العملية التغييرية قد تستغرق عشرات السنوات، وأنها دائمًا تبدأ بمحاولات فردية اجتهادية وتصيبها العديد من الإخفاقات، وهي بالجملة عملية متعبة، ومرهقة، وطويلة الأمد.

فحركة الصهيونية على سبيل المثال بدأت بتصورات بسيطة للعديد من الحاخامات اليهود في منتصف القرن التاسع عشر مثل يهوذا بيباس ويهوذا بن سليمان القلعي، ثم جاء الصحفي النمساوي تيودور هيرتزل ليحول الأفكار إلى مشروع نظري وعملي، كما استغل أحداث التاريخ ومتغيرات موازين القوى وكتب كتابه (الدولة اليهودية) عام 1896م، ولم تتحقق فكرته إلا بعد وفاته بخمسين عامًا تقريبًا وأعلنت الدولة اليهودية كدولة رسمية معترف بها دوليًا عام 1948م(131).

لقد تحول اليهود من شعوب مضطهدة ومشتتة في كل دول العالم إلى وحدة سياسية ذات أيدولوجية صلبة وعقيدة واضحة وتنظيم يتحرك من أجل مصالحهم المشتركة. لكن هذا لم يحدث بين يوم وليلة بل كان نتاج مائتي عام من التنظير والعمل والنجاح والفشل والصعود والهبوط.

وحتى حركة الشواذ والمتحولين جنسيًا LGBT فقد استطاعت تشكيل جماعات ضغط عبر عشرات السنوات، استطاعت حذف الشذوذ الجنسي من قائمة الاضطرابات النفسية عام 1973م بعدما ظل في تصنيفه كاضطراب في الشخصية (طُبّع الشذوذ في الدليل الإحصائي بدون الاستناد لأي دليل علمي حول سبب هذا التغير)، وكل من يكتب ضد الشذوذ الجنسي صار يُمنع ويُصادر وتقاطعه المجلات

العلمية والمتخصصين ويُشهِّر به، وربما يُنهى مشواره المهني، وذلك منذ سبعينات القرن الماضي، وفي القرن الحادي والعشرين أرغمت الحركة الدول الكبرى على تبني أفكارها وأيدولوجيتها(132).

وعلى كافة المستويات يكون هذا هو منهج التغيير الطبيعي، لنأخذ مثلًا منطقة إيموكالي بولاية فلوريدا الأمريكية، فقد كانت تنتج حصصًا ضخمة من غذاء الدولة ككل، أغلب العاملين فيها كانوا من المهاجرين من المكسيك وأمريكا الجنوبية، لكن عمالها كانوا أقرب للعبيد منهم إلى المواطنين أو حتى الأجانب، فحقوقهم مهدورة ويعيشون على الفتات، يُضربون بالعصي ويُكبلون بالحديد ويُعتدى عليهم لفظيًا وجسديًا وجنسيًا. لكن في عام 1993م بدأ الفلاحون والعمال في تجميع أنفسهم سريًا في كنيسة صغيرة، ثم أطلقوا شرارة الغضب وقرروا الحركة، عبر نشر فكرتهم إلى أقرانهم، وبعد ذلك قرروا الإضراب عن الطعام، كافحوا من أجل حقوقهم البسيطة، وساروا مئات الأميال في اعتراضات واحتجاجات جماعية.

وعبر سلسلة أحداث طويلة، استطاعوا تحسين أوضاعهم المالية، وضمنوا سكناً ومعاملة أفضل، ونجحوا في إيقاف نشاط التهريب والعمل بالإجبار، وحصلوا على حقوقهم من الشركات التي تلتهم حياتهم وحريتهم، وأرغموا شركات كثيرة على دفع تعويضات لهم بشكل أو بآخر. وحتى اللحظة لا يزال كفاح هؤلاء العمال مستمرًا(133).

وبالانتقال للصعيد الإسلامي فإن كافة الحركات الإسلامية تاريخيًا بدأت كمجرد اجتماع بسيط بين مجموعة من الحرفيين والمهنيين لا يتجاوز عشرة أفراد، والطلاب الذين قادوا الحراك الطلابي في السبعينات بأقل الإمكانيات الممكنة صاروا زعماء الحركة الإسلامية في مصر والمغرب وتونس، وقادة الصحوة في السعودية الذين كانوا شبابًا لا يمتلكون علماً غزيرًا ولا إمكانيات هائلة صاروا هم رواد الفكر الإسلامي في عصرنا الحالي.

نعم هناك سياقات مختلفة وظروف متباينة، والمساحات المتاحة في دولة ما غير

متاحة في دولة أخرى، لكن يبقى العمل والسعي هو جوهر التغيير ومحركه حتى وإن غابت الرؤية الكلية. نعم بالطبع لا يمتلك أحدهم رؤية كاملة أو مشروعًا واضحًا للتغيير في المنطقة العربية. لكن هذا لا ينبغي أن يُمنع من العمل، ورحم الله من قال: «سقف الممكن مذهل».

10) تربية الأطفال بموازنة بين الفردانية والجماعية

يوصي فايز الزهراني في كتابه (التربية من جديد) التربويين والآباء والأمهات على توفير مناخ يوازن بين الفردانية والجماعية، قائلًا إن الجماعية تعلم الطفل عبر حدود الجماعة قيمًا فريدة مثل الطاعة والنظام والضبط وتقديم المصالح الكبرى على المصالح الشخصية، كما يتربى على أخلاقيات الأخوة من الإيثار والتعاون وخدمة الآخرين وإحسان الظن بهم والذب عنهم ورد غيبتهم.

ويؤكد أن المحضن الفردي يعزز لدى الطفل العمل وفق مسار النمط الشخصي والثقة بالنفس، فالمناخ الفردي ينعش الشخصية ويقوم بإثراء الإنسان إبداعيًا وفكريًا وسلوكيًا، في حين أن المناخ الجماعي يصقل شخصية الطالب ويهذبها(134).

ويعطي مثالًا للتوازن المطلوب بجيل الصحابة الكرام، ففي حين أن الصحابة ورد فيهم نصوصًا كثيرة تمدحهم جميعًا إلا أنهم كانوا على مشارب شتى وشخصيات متنوعة، يتباينون في الأعمال الصالحة ويختلفون في طرائق المعيشة، وقد أقرّ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الاختلاف فيهم كما جاء في الحديث: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(135).

ومن المؤلم أن نرى بعض الأمهات في هذه الأيام يربين أبناءهن على الإفراط في الجانب الفرداني، دون الالتفات إلى خطر ذلك على الأبناء. وأحد النماذج المثيرة

للقلق هو أن إحدى الأمهات المصريات كتبت على موقع فيسبوك أنها لا تعد طعام الفطور ولا العشاء لأبنائها، وإذا لم يستطيعوا إعداد طعام لأنفسهم تركتهم ليناموا جوعى(136).

ولا أدري في الحقيقة سبب ذيوع نمط التربية الإيجابية مؤخرًا، وربما يحتاج هذا الموضوع إلى طرحه في كتاب خاص آخر، لكن من المعلوم أن الأدبيات الغربية طرحت نقدًا للسلوكيات الناتجة لدى الطفل جراء هذا النوع من التربية الحديثة، وأظهرت أوجه الخلل فيه ولكن العالم العربي في صمت ولا ينقل سوى الإيجابيات في الغالب. ومن ضمن السلبيات المرصودة في الأطفال مما قرأته في بعض الأوراق البحثية والمقالات المتفرقة الأجنبية:

- تفكيك فطرية العلاقة بين الوالدين وأبنائهم، عبر تحويل الوالدين لماكينات تتبع الأكاديميا والكتب والدورات فحسب، بمعنى أن الآباء والأمهات يفقدون سلوكياتهم الفطرية في التربية ولا يعرفون كيف يتصرفون إزاء أي موقف للطفل سوى من خلال الدليل والإرشادات.

- تعزيز النرجسية الشديدة لدى الأطفال منذ صغرهم وتعظيم الأنا عندهم في كل صغيرة وكبيرة، الأمر الذي يؤثر على نظرتهم للآخرين وعلاقتهم بهم منذ مرحلة الطفولة إلى الرشد بل يؤثر على علاقتهم بوالديهم أنفسهم.

- كره الأطفال للنقد وعدم تصورهم الصحيح لمفهوم العقاب وينعكس ذلك على تصورهم للحياة والمجتمع والتاريخ والقانون عندما ينضجون، واستسهال الأطفال للخطأ وعدم قدرتهم على الاستجابة السوية لأي سلطة خارجية سوى سلطة ضميرهم الداخلي.

لكن بكل أسف فإن بعض الأمهات والآباء يميلون إلى هذا النوع من التربية لأنه الرائج في ثقافة السوشيال ميديا، ولا يدركون الأثر المدمر لهذا النقل غير الواعي لنمط التربية الحديثة دون ضبط موضوعي وعلمي وشرعي له.

لقد بلغت المأساة في إفراط التربية الفردانية إلى حد أن أحد الأطفال - عشر سنوات - اشتكى أمه إلى أم أحد أصدقائي قائلًا: «أمي تظل تقرأ وتتعلم ثم تأتي لتطبق ما تقرؤه علينا، هؤلاء أصحاب التربية الحديثة يريدون دخول النار، لقد حرمونا طفولتنا»(137). ولك أن تتخيل مدى معاناة طفل يشتكي والدته بهذه الطريقة ولم يعد يتحمل، حتى صار مؤمنًا أن التربية الإيجابية الحديثة هي سبب حرمانه من طفولته وهلاك أمه في نار جهنم!

والمقصود من هذه النقطة أن يحصل توازن بين تعليم الطفل الاندماج في الجماعة والتعلم الاجتماعي من قيمها، مع اكتساب وتنمية مهاراته الفردية مستقلًا عن الجماعة.

بهذه النقاط العشرة نكون قد ختمنا كلامنا حول الآليات المقترحة لتجاوز أزمة الفردانية، ونصل لنهاية الكتاب، الذي حاولنا فيه تقديم صورة بانورامية موضوعية عن تحولات جيل الألفينات إلى الفردانية ونشوء جيل جديد لا يفكر سوى فردانيًا.

ثم ختمنا كلامنا بعرض مبررات ودوافع هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة، ومظاهر تجلياتها في شخصياتنا وتفكيرنا وأحوالنا النفسية، وأخيرًا ما ينبغي أن نفعله من أجل استعادة التوازن بين نزعتنا الفردانية وانتمائنا للأمة الإسلامية ولروابطنا الأسرية.

ونرجو أن نكون قد وُفقنا في نفع القارئ الكريم ونقل الصورة إليه، سائلين المولى عز وجل أن يتقبل منا عملنا، وأن يكتبنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والحمد لله رب العالمين.

المراجع

أولًا: باللغة العربية

- إلهامي عبد العزيز، الانتماء للأسرة وعلاقته بأساليب التنشئة الاجتماعية، (القاهرة: رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس، 1987م).

- حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006م).

- الطيب بو عزة، نقد الليبرالية، (القاهرة: التنوير للنشر والإعلام، 2013م).

- لويس دومون، مقالات في الفردانية: منظور أنثروبولوجي للأيديولجية الحديثة، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة).

- ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، (بيروت: مركز الإنماء القومي).

- محمد شعبان أيوب، كيف ربى المسلمون أبناءهم، (القاهرة: مؤسسة اقرأ، 2011م).

- عمر عبد الحكيم، الثورة الإسلامية الجهادية في سوريا.

- سلوى العوا، الجماعة الإسلامية المسلحة في مصر: 1974م-2004م، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006م).

- أروى صالح، المبتسرون: دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية، (دار النشر الالكتروني، 1997م).

- حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006م).

- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية المقهور، (الدار

البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005م).

- ابن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، 1990م).

- سفر الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، (دار الكلمة: 1999م).

- أبو الحسن بن الجعد، مسند ابن جعد، (بيروت: دار الكتب العلمية).

- غسان كنفاني، رجال في الشمس، (بيروت: دار المثلث، 1980م).

- آدم هنية، جذور الغضب: حاضر الرأسمالية في الشرق الأوسط، (الجيزة: دار صفصافة، 2020م).

- جيل ليبوفتسكي، عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، (بيروت: مركز نماء، 2018م).

- ميشيل لاكروا، عبادة المشاعر، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2017).

- زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016م).

- عبدالله الدارمي، سنن الدارمي، (دار المغني، 2000م).

- انظر مثلًا: تقي نجاري راد، السافاك، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003م).

- باتريك هايني، إسلام السوق، (القاهرة: مدارات للبحث والنشر).

- حمزة ياسين، التغير في تدين الشباب من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي في مدينة عمان «الفيس بوك نموذجًا»، ضمن رسائل الجامعة الأردنية وليست منشورة.

- انظر: طوني صغبيني، لعنة الألفية: لماذا يفشل النشاط التغييري (بيروت: مدوّنة نينار، 2014م).

- ابن خلدون، المقدمة، (دمشق: دار يعرب، 2004م).

- مجموعة مؤلفين، مأزق الشباب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، (بيروت: دار الساقي، 2019م).

- محمد بن محمد بن عبدالرحمن، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، (بيروت: دار الكتب العلمية).

- عباس السيسي، الدعوة إلى الله حب.

- محمد علي محمد إمام، فرضية الدعوة إلى الله من أقول الشيخ عبد الوهاب، (القاهرة: الهيئة العامة لدار الكتب المصرية، 2013م).

- منصور القطري، فضل السكوت ولزوم البيوت: أوراق جريئة لتفعيل المجتمع، (دمشق: دار عقل للنشر، 2016م).

- محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام: شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، (بيروت: دار الأرقم).

- جلال أمين، ماذا علمتني الحياة؟، (القاهرة: دار الشروق، 2006م).

- ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا ظهرت القدس، (الإمارات: دار القلم، 2002م).

- جاسم سلطان، أزمة التنظيمات الإسلامية، (بيروت: الشبكة العربية، 2015م).

- عبدالله بن المقفع، آثار ابن المقفع، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1989م).

- البشير الإبراهيمي آثار البشير الإبراهيمي، (دار الغرب الإسلامي، 1997م).

- نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، (الأسكندرية: دار نشر الثقافة، 1964م).

- ابن الجوزي، صيد الخاطر، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م).

- طوني صبغيني، ليلة الهروب من السيستم: الحياة البسيطة وتحقيق الاستقلالية

الذاتية في زمن الأزمات، (دبي: مدونة نينار، 2015م).

- أحمد يوسف السيد، سابغات، (لندن: مركز تكوين، 2015م).

- إبراهيم السكران، الماجريات، (الرياض: دار الحضارة، 2015م).

- فهد السنيدي، في صحبة السميط: رحلة في أعماق القارة المنسية، (الرياض: دار عالم الكتب، 2015م).

- محمد مصطفى خميس، أحمد ديدات: سفير العهد الأخير، (الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2017م).

- علي شريعتي، الهجرة إلى الذات، (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2015م).

- عبد الوهاب المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني: جذوره ومساره وأزمته، (القاهرة: دار الشروق، 2010م).

- فايز الزهراني، التربية من جديد، (الرياض: دار رسالة البيان، 1439هـ).

ثانيا: باللغة الأجنبية

Yuval Levin, The Fractured Republic: Renewing America's Social Contract in the Age of Individualism, (NY: Basic Books, 2016).

Nathan Miczo, How Superheroes Model Community: Philosophically, Communicatively, Relationally. (USA: Lexington Books, 2016), P. 36.

Godfrey Jansen, Militant Islam, (NY: Harper & Row Pub., 1979).

Mary Aiken, The Cyber Effect, (NY: Spiegel & Grau, 2016).

Elliott Lemert, The New Individualism: The Emotional Costs of Globalization.

Luc Ferry and Alain Renaut, Itineraries de l' individu, (Paris: Gallimard, 1987).

Jon Alterman, Ties that Bind: Family, Tribe, Nation, and the Rise of Arab Individualism, (Washington: CSIS, 2019).

Hazim Saghie, The Predicament of the Individual in the Middle East, (London: Saqi Books, 2001(.

Benjamin Acosta, The Palestenian Shahid and the Development of the Model 21st Century Islamic Terrorist, (California State University, 2008).

Martin A. Lee & Bruce Shlain, Acid Dreams: The Complete Social History of LSD: The CIA, The Sixties, and Beyond, (NY: Grove Press, 1985).

Christopher Lasch, The Culture of Narcissism: American Life in an Age of Diminishing Expectations, (NY: Norton&Norton).

Jerry Rubin. Growing (Up) at Thirty-Seven, (USA: Roman&Littlefield, 1976).

Carl Cedrstrom, The Happiness Fantasy, (UK: Polity Press, 2019).

James S. Baugess and Abbe Allen Debolt, Encyclopedia of

the Sixties: A Decade of Culture and Counterculture, (USA: Greenwood, 2012).

Jean Twenge and Wiliiam Campbell, The Narcissism Epidemic: Living in the Age of Entitlement, (NY: Free Press, 2009).

Arthur Koestler et al, The God That Failed: A Confession, (NY: Harper Colophon, 1963).

Whittaker Chambers, Witness, (Washington DC, Gateway Editions, 2001).

Robert Thurston, Life and Terror in Stalin's Russia 1934-1941, (NY: Yale University Press, 1996).

Eric Liu, You're More Powerful Than You Think: A Citizen's Guide to Making Change Happen, (NY: PublicAffairs, 2017).

Charles Tilly, Trust and Rule (New York: Cambridge University Press, 2005), 12.

Richard Sennet, The Corrosion of Character: The Personal Consequences of Work in the New Capitalism, (NY: W.W. Norton & Co., 1998).

Abdul Latif Tibawi, Islamic Education: Its Traditions and Modernization into the Arab National Systems, (London: Luzac, 1972).

Robert Reilly, Making Gay Okay: How Rationalizing Homosexual Behavior is Changing Evertything, (San Fransico:

Ignatius Press, 2014).

Martin Sanders, The Power of Mentoring: Shaping the People Who Shape the World, (Illinois: WingSpread Publishers, 2004).

---

(1) سيأتي تعريفها تفصيلًا في الفصل الأول من الكتاب.

(2) Mari Aiken, The Cyber Effect, (NewYork: Spiegel & Grau. 2016).

(3) للقراءة حول الفردانية وآثارها في أمريكا، انظر:

Yuval Levin, The Fractured Republic: Renewing America's Social Contract in the Age of Individualism, (NY: Basic Books, 2016).

(4) Nathan Miczo, How Superheroes Model Community: Philosophically, Communicatively, Relationally. (USA: Lexington Books, 2016), P. 36.

(5) الجزء الأول من الفيلم صادر عام 2014م والثاني عام 2019م.

(6) الأغنية متوفرة على يوتيوب.

(7) كما في الحديث الصحيح: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

(8) English, H.b. & English A.C., A Comprehensive pf Psychological and psychoanalytical terms, (NY: Longman & Green Co. Inc., 1958).

(9) إلهامي عبد العزيز، الانتماء للأسرة وعلاقته بأساليب التنشئة الاجتماعية، (القاهرة: رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس، 1987م).

(10) Melvin Seeman, On the Meaning of Alienation, American Sociological

Review, vol. 24, 1959

(11) حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006م)، ص/ 36.

(12) C. Harry Hui, Measurement of Individualism-Collectivism, Journal of Research in Personality, 22(1), 17-36

(13) أجرينا الاستبيان الرئيسي للجزء الثاني من الكتاب في منتصف عام 2019م، وأخبرنا معظم الشباب أن تحولهم للفردانية بدأ في الحدوث منذ سنتين إلى أربع سنوات تقريبًا، ما يعني الفترة بين 2017-2015م، ولذا حددنا أواخر عام 2016م كمحدد زمني تقريبي للتنامي المتصاعد للظاهرة

(14) Elliott Lemert, The New Individualism: The Emotional Costs of Globalization.

(15) Luc Ferry and Alain Renaut, Itineraries de l' individu, (Paris: Gallimard, 1987).

(16) الطيب بو عزة، نقد الليبرالية، (القاهرة: التنوير للنشر والإعلام، 2013م)، ص/ 60.

(17) لويس دومون، مقالات في الفردانية: منظور أنثروبولوجي للأيديولجية الحديثة، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة).

(18) يطلق مصطلح الأسرة النواة أو الأسرة النووية Nuclear Family على العائلة المكونة من أب وأم وأطفالهما، أما الأسرة الممتدة فيستخدم لوصف نوع الأسرة التي تمتد خارج الأسرة النووية، أي الأعمام والأخوال والأجداد والأحفاد وأبناء العمومات وبنات الخالات ونحو ذلك، ويعيشون في منزل واحد أو محيط اجتماعي مقترب ومتلاصق.

(19) ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، (بيروت: مركز الإنماء القومي).

(20) من المهم أن نذكر أنه على الصعيد المقابل للفلسفة للرأسمالية، نشأت الفلسفة المعارضة لها وهي الماركسية، التي صيغت كنقيض لهذه الرؤية الرأسمالية الغارقة في الفردانية، فقد نادت

الماركسية بالعودة إلى القيم الجماعية التي تخدم الجمهور والكادحين في مجموعهم لا تلك القيم الفردانية التي يصوغها الفرد الواحد ولا تحقق إلا أهدافه الخاصة.

كانت الشعارات الكبرى للأيدولوجيا اليسارية الماركسية تتمحور حول الجماعة، والصراع الطبقي العالمي، وثورات البروليتاريا الجماهيرية. لقد كانت الشيوعية فلسفة جماعية بامتياز. وأمام موجات من الفقر المتصاعد والحروب المتوالية منذ بدايات القرن العشرين، اعتنق الشباب الأوروبي الأفكار اليسارية وصار النضال الجماهيري هو ما يعطي لهم المعنى في حياتهم.

بل رأت الماركسية أن الهوية الشخصية ابتداءً تتشكل كلها من الطبقة الاجتماعية الاقتصادية وأن استقلالية الفرد ليست إلا وهمًا من الأوهام، فالنظام الاقتصادي القائم هو الذي يحدد كيفية تفكيرك، وهدف الماركسية أن تحرر الناس من قيود النظام الرأسمالي الذي يكبل مصلحة الجماهير ككل.

فباختصار كانت الفردانية أساسًا من أسس الرأسمالية، ومثلت الماركسية شكلًا من أشكال الجماعية، وسنرى في الفصل التالي كيف كان اليساريون الماركسيون في مصر وأمريكا يعارضون الفردانية الغربية، لكن معارضتهم باءت بالفشل واضمحل مشروعهم السياسي، واتجهوا مستسلمين في نهاية المطاف إلى الفردانية.

(21) Hazim Saghie, The Predicament of the Indiviual in the Middle East, (London: Saqi Books, 2001, P. 55

(22) انظر: محمد شعبان أيوب، كيف ربى المسلمون أبناءهم، (القاهرة: مؤسسة اقرأ، 2011م).

(23) سنعود لمزيد من التفصيل في هذه النقطة في الفصل الأخير.

(24) Godfrey Jansen, Militant Islam, (NY: Harper & Row Pub., 1979), P. 30.

(25) محمد المجذوب، محاضرة مناقشات حول الأخلاق ومشكلة الشر، مارس/آذار 2020م، bit.ly/2W7PLx1

(26) C. Harry Hui, Measurement of Individualism-Collectivism, Journal of Research in Personality, 22(1), 17-36.

(27) Hofstede, G.,Culture's consequences: International differences in work-related values. Beverly Hills, CA: Sage.

(28) bit.ly/381p7vz

(29) Saghie, Predicament of the Individual, Introduction.

(30) عبيدة عامر، أبناء «الإخوان» السوريين: عن الذين لم يعرفوا بلادهم إلا بالثورة.

(31) عمر عبد الحكيم، الثورة الإسلامية الجهادية في سوريا، ص/ 301

(32) للاستزادة حول طبيعة الصراع بين الجماعة والنظام حينذاك انظر: سلوى العوا، الجماعة الإسلامية المسلحة في مصر: 1974م-2004م، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006م).

(33) حسام تمام، الجهاديون التائبون، بيئة معاكسة وعودة غير محتملة، bit.ly/3a6dyG6

(34) جميع الفقرات في هذه الجزئية مقتبسة من: أروى صالح، المبتسرون: دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية، (دار النشر الالكتروني، 1997م).

(35) حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006م)، ص/ 81.

(36) المصدر نفسه.

(37) المصدر نفسه.

(38) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية المقهور، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005م)، ص/ 101.

(39) ابن كثير، البداية والنهاية، 10/276.

(40) للاستزادة، انظر: سفر الحوالي، ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، (دار الكلمة: 1999م).

(41) أبو الحسن بن الجعد، مسند ابن جعد، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص/ 167.

(42) Benjamin Acosta, The Palestenian Shahid and the Development of the Model 21st Century Islamic Terrorist, (California State University, 2008), P. 222

(43) غسان كنفاني، رجال في الشمس، (بيروت: دار المثلث، 1980م).

(44) آدم هنية، جذور الغضب: حاضر الرأسمالية في الشرق الأوسط، (الجيزة: دار صفصافة، 2020م)، ص 220.

(45) Levin, Fractured Republic, P.2.

(46) Mildred Edie Brady, The New Cult of Sex and Anarchy, bit.ly/37X9kOb

(47) Martin A. Lee & Bruce Shlain, Acid Dreams: The Complete Social History of LSD: The CIA, The Sixties, amd Beyond, (NY: Grove Press, 1985).

(48) Jerry Rubin: The Countercultural Icon Who Invented Social Networking, bit.ly/3gScHu1

(49) Christopher Lasch, The Culture of Narcissism.: American Life in an Age of Diminishing Expectations, (NY: Norton&Norton).

(50) Ibid.

(51) Jerry Rubin. Growing (Up) at Thirty-Seven, (USA: Roman&Littlefield, 1976), P.167 .

(52) Paul Krassner, Who Killed Jerry Rubin? bit.ly/3ndfno1

(53) Carl Cedrstrom, The Happiness Fantasy, (UK: Polity Press 2019).

(54) Adam Curtis, Hypernormalisation

(55) Ibid.

(56) Ibid

(57) Jane Fonda's 1982 Workout Routine Is Still the Best Exercise Class Out There, bit.ly/3qOGulv

(58) James S. Baugess and Abbe Allen Debolt, Encyclopedia of the Sixties: A Decade of Culture and Counterculture, (USA: Greenwood, 2012), P. 215.

(59) Jean Twenge and Wiliiam Campbell, The Narcissism Epidemic: Living in the Age of Entitlement, (NY: Free Press, 2009)l

(60) Interview with Barbara Walters, bit.ly/2W9d0XO.

(61) Hypernormalisation, bit.ly/345L1MY.

(62) Peter Hockaday , Hippies, nudity, and Don Draper: Inside Big Sur›s Esalen Institute featured in ‹Mad Men›, bit.ly/2Lwp2lz

(63) Cederstrom, Happiness Fantasy.

(64) Cederstrom, Happiness Fantasy.

(65) جيل ليبوفتسكي، عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، (بيروت: مركز نماء، 2018م).

(66) هذه الفقرة تفريغ بتصرف من وثائقي: Adam Curtis, Hypernormalisation.

(67) Tom Wolfe, The "Me" Decade and the Third Great Awakening, nym.ag/3ndGkls

(68) Arthur Koestler et al, The God That Failed: A Confession, (NY: Harper

Colophon, 1963).

(69) Whittaker Chambers, Witness, (Washington DC, Gateway Editions, 2001).

(70) Robert Thurston, Life and Terror in Stalin›s Russia 1934-1941, (NY: Yale University Press, 1996).

(71) جيل ليبوفتسكي، عصر الفراغ.

(72) ميشيل لاكروا، عبادة المشاعر، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2017).

(73) Joseph M., Rugged Individualism: Nietzsche, Superman and America, bit.ly/3gEluzv

(74) Jon Alterman, Ties that Bind: Family, Tribe, Nation, and the Rise of Arab Individualism, (Washington: CSIS, 2019).

(75) انظر: زيجموت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016م).

(76) عبدالله الدارمي، سنن الدارمي، (دار المغني، 2000م)، ص/ 460.

(77) bit.ly/383s1js

(78) نقلًا عن: إبراهيم هلال، فيالق الحمقى وغزو البلهاء.. لماذا ينتشر الأدب السخيف؟

(79) Mary Aiken, The Cyber Effect, (NY: Spiegel & Grau, 2016.

(80) bit.ly/3a4Y3xZ.

(81) للاستزادة في هذه النقطة، انظر: مدونة المنفى: الله الذي نريد: عن الدعاء والعبادة.

(82) Finkelstein, Marcia. (2010). Individualism/collectivism: Implications

for the volunteer process. Social Behavior and Personality: an international journal. 38. 445-452. 10.2224/sbp.2010.38.4.445.

(83) انظر مثلًا: تقي نجاري راد، السافاك، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003م)، ص/ 140.

(84) almanfa.com/?p=626.

(85) باتريك هايني، إسلام السوق، (القاهرة: مدارات للبحث والنشر)، ص/ 47.

(86) حمزة ياسين، التغير في تدين الشباب من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي في مدينة عمان «الفيس بوك نموذجًا»، ضمن رسائل الجامعة الأردنية وليست منشورة.

(87) محمد فتوح، إسلاميو الإنفلونسرز: تشكيل علاقة الفرد بالدين.

(88) انظر: طوني صغبيني، لعنة الألفية: لماذا يفشل النشاط التغييري (بيروت: مدوّنة نينار، 2014م).

(89) انظر: طوني صغبيني، لعنة الألفية: لماذا يفشل النشاط التغييري (بيروت: مدوّنة نينار، 2014م).

(90) مقال: الإسلاميون والحداثة، الخطاب الفرداني نموذجًا، للأسف لم أستطع التوصل لمؤلفه

(91) bit.ly/3aaVrPj

(92) ابن خلدون، المقدمة، (دمشق: دار يعرب، 2004م)، ص/ 249.

(93) bit.ly/3gEm1Bv

(94) Eric Liu, You're More Powerful Than You Think: A Citizen's Guide to Making Change Happen, (NY: PublicAffairs, 2017).

(95) مجموعة مؤلفين، مأزق الشباب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

(96) Charles Tilly, Trust and Rule (New York: Cambridge University Press, 2005), 12.

(97) مجموعة مؤلفين، مأزق الشباب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، (بيروت: دار الساقي، 2019م).

(98) Alterman, Ties that Bind, P. 6.

(99) Alterman, Ties That Bind.

(100) Richard Sennet, The Corrosion of Character: The Personal Consequences of Work in the New Capitalism, (NY: W.W. Norton & Co., 1998), P. 24.

(101) Alterman, P. 38.

(102) cnn.it/3815q60.

(103) bit.ly/3oMBySE.

(104) لنقد موسع حول التنظيمات الإسلامية، انظر: جاسم سلطان، أزمة التنظيمات الإسلامية، (بيروت: الشبكة العربية، 2015م)

(105) محمد بن محمد بن عبدالرحمن، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص/ 43

(106) انظر: عباس السيسي، الدعوة إلى الله حب.

(107) محمد علي محمد إمام، فرضية الدعوة إلى الله من أقول الشيخ عبد الوهاب، (القاهرة: الهيئة العامة لدار الكتب المصرية، 2013م).

(108) bit.ly/37Q8Rgw.

(109) almanfa.com/?p=769.

(110) منصور القطري، فضل السكوت ولزوم البيوت: أوراق جريئة لتفعيل المجتمع، (دمشق: دار عقل للنشر 2016م)، ص/ 37.

(111) أحمد يوسف السيد، سابغات، (لندن: مركز تكوين، 2015م)، ص/ 70.

(112) محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام: شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، (بيروت: دار الأرقم) ص/ 497.

(113) جلال أمين، ماذا علمتني الحياة؟، (القاهرة: دار الشروق ، 2006م)، ص/ 338-337.

(114) ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا ظهرت القدس، (الإمارات: دار القلم، 2002م).

(115) المصدر السابق، ص/ 27-26.

(116) عبدالله بن المقفع، آثار ابن المقفع، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1989م)، ص/ 288.

(117) Martin Sanders, The Power of Mentoring: Shaping the People Who Shape the World, (Illinois: WingSpread Publishers, 2004), P.

(118) البشير الإبراهيمي آثار البشير الإبراهيمي، (دار الغرب الإسلامي، 1997م)، ص/ 5/164.

(119) ناقلة عن كتاب:

Godfrey Jansen, Militant Islam, (NY: Harper & Row Pub., 1979).

(120) Saghie, Predicament of the Individual, P. 54.

(121) نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، (الأسكندرية: دار نشر الثقافة، 1964م).

(122) Jansen, Militant Islam, P. 59

(123) Abdul Latif Tibawi, Islamic Education: Its Traditions and Modernization into the Arab National Systems, (London: Luzac, 1972), P. 172.

(124) bit.ly/3ne272J.

(125) طوني صبغيني، ليلة الهروب من السيستم: الحياة البسيطة وتحقيق الاستقلالية الذاتية في زمن الأزمات، (دبي: مدونة نينار، 2015م).

(126) ابن الجوزي، صيد الخاطر (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992م)

(127) لسيرة موجزة عن الشيخ الإبراهيمي، انظر: إبراهيم السكران، الماجريات، (الرياض: دار الحضارة، 2015م)، ص/ 130-79

(128) انظر في سيرة السميط: فهد السنيدي، في صحبة السميط: رحلة في أعماق القارة المنسية، (الرياض: دار عالم الكتب، 2015م).

(129) انظر في سيرة ديدات: محمد مصطفى خميس، أحمد ديدات: سفير العهد الأخير، (الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2017م).

(130) علي شريعتي، الهجرة إلى الذات، (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2015م) ص/ 204.

(131) للقراءة حول الصهيونية، انظر: عبد الوهاب المسيري، تاريخ الفكر الصهيوني: جذوره ومساره وأزمته، (القاهرة: دار الشروق، 2010م).

(132) انظر:

Robert Reilly, Making Gay Okay: How Rationalizing Homosexual Behavior is Changing Evertything, (San Fransico: Ignatius Press, 2014)

(133) انظر: Eric Liu, You're More Powerful Than You Think, P. 6..

(134) فايز الزهراني، التربية من جديد، (الرياض: دار رسالة البيان، 1439ه)، ص/ 163-168.

(135) رواه الترمذي.

(136) bit.ly/37cuI2F.

(137) bit.ly/2W5dKNw.